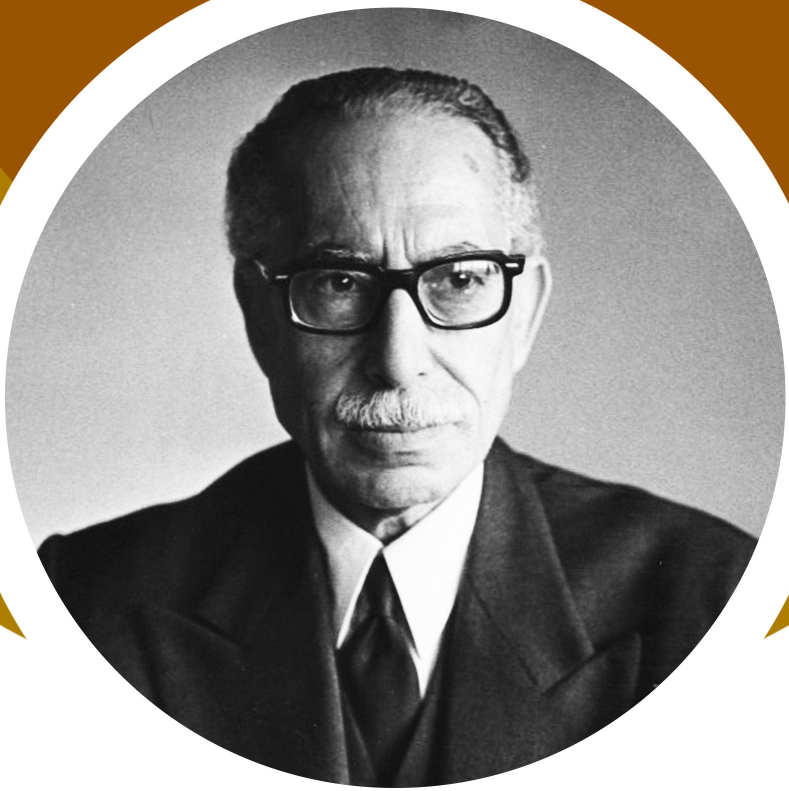

عهد الشيطان

توفيق الحكيم

عهد الشيطان

تأليف
توفيق الحكيم

هنـــداوي

عهد الشيطان

توفيق الحكيم

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ٨٣٢٥٢٢ ١٧٥٣ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: ولاء الشاهد

الترقيم الدولي: ٨ ٣٢٨٩ ٥٢٧٣ ١ ٩٧٨

صدر هذا الكتاب عام ١٩٣٨.
صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٣.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب وتصميم الغلاف محفوظة لمؤسسة هنداوي.
جميع حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي محفوظة لأسرة السيد الأستاذ توفيق الحكيم.

المحتويات

عهد الشيطان	٧
في النوم	١٣
«راديوم» السعادة	١٧
في حانة الحياة	٢٣
حقوقي على نفسي	٢٩
مع الأميرة الغضبى!	٣٣
أمام حوض المرمر!	٣٩
بين الحلم والحقيقة	٤٧
عدو إبليس	٥٣
فوق السحب	٥٩
كن عدوًّا للمرأة	٦٣
من الأبدية	٦٥

عهد الشيطان

وقع ذلك الحدث الذي أرويه في ليلة من ليالي الشتاء في منتصف الليل ... في تلك الساعة الرهيبة التي أجمعت الأساطير على أن فيها يحدث كل جلل من الأمر. وكنت جالسًا إلى مكتبي أقرأ تحت نور ضئيل. وقد تكدست أمامي كتبٌ يعلوها التراب. وكان الكتاب المفتوح بين يدي قصة «فوست»، وكنت قد بلغت منها تلك الصفحات التي يجلس فيها العالِم الشيخ بين كتبه في إحدى الليالي، وقد تهدَّل شعره الأبيض على منكبيه وهو قانط من العلم، راغب عن الحياة التي تمنحه من المعرفة ما كان يحسب أن في مقدورها أن تعطيه البشر. وقد جلس يحصي على نفسه تلك الثمانين من الأعوام التي عاشها. ماذا صنع فيها؟ وماذا ربح؟ إنه لم يعرف الشباب قط، ولم يدخل قلبه ذلك الفرح بالحياة قط، ولم تدرك نفسه معنى الطمأنينة ولا الابتسام. حتى في ذلك الزمن الجميل يومَ كان خلانه يقولون «الحب» كان هو يقول «المعرفة»، ولقد جد حقيقة في سبيلها وأحاط بكل ما سمح لعقله إنسان أن يحيط به. لقد أعطى العلم كلَّ حياته. والآن وقد أوشكت تلك الحياة أن تذهب، الآن وهو في طريق الأوبة إلى ذلك المكان المجهول الذي جاء منه (لو أن في الإمكان أن نسميه مكانًا!) ألا تراه عائدًا إليه بصفقة المغبون؟ أما العلم فإنه الآن يسخر منه بقدر ما يسخر هو من نفسه؛ إذ أضاع من أجله حياة كاملة فيها أشياء كثيرة غير العلم. إنه خارج من الحياة، ولم يحمل زهرة، ولم يستنشق عبيرًا من ذلك البستان الفاتن بأشجاره وأنهاره وورده وغزلانه. إنه لم يملأ قلبه بشيء، وإنما قد ملأ رأسه بكلام كثير سوف يأكله الدُّود كما قال «هايني»، مع ما سوف يأكل من لحم تلك الجمجمة الكبيرة.

كل هذه الخواطر كانت تدور في خلد العالم «فوست» وهو جالس أمام كتاب في علم الفلك تحت نور ضئيل في حجرة كالقبو من حجرات القرون الوسطى. ولم يكن حوله غير كتب مكدسة يعلوها التراب وغير سكون مطبق مخيف. ولم يكن بالمكان أحد. ومع

ذلك سرَت في جسم العالم المتهدم رعدة؛ إذ شعر أنه ليس وحده في المكان. فتردد قليلًا ثم استدار بعينيه المنطفئتَين يبحث في أركان الحجرة؛ فلم يجد أحدًا غير ظلال نور المصباح تتلاحق فوق الحائط القاتم كالأشباح اللاعبة؛ فتملَّكه خوف لم يدرِ سببه … ووضع وجهه في كتابه يحاول القراءة ويلتمس فيها هدوء الخاطر. وإذا صوت هامس يلقي في أذنه: فوست! فوست! لقد سمعتُ ما دار في نفسك!

فجمد الدم في عروق الشيخ، واستطرد الصوت: لا تخَف. ألا تعرف من أنا؟

لم يُحِر العالِم جوابًا، ولم يجرؤ على الحركة وظلَّ في جلسته كتمثال من الشمع.

فاستأنف الصوت: أنا الذي يستطيع أن يمنحك ما تطلب.

هنا دبَّت القوة في نفس الشيخ، وزال عنه الخوف والتفت إلى مكان الصوت؛ فأبصر وجهًا غريب السحنة لا يشبه وجوه البشر، يبسِم له ابتسامة عجيبة. ولم يجِد لهذا الوجه جسمًا، فقد كان محاطًا بالظلام. وتمالك الشيخ وتحامل، ثم قال في صوت واجف: من أنت؟

فنظر إليه الوجه نظرة ثانية وأجاب: وهل يعنيك كثيرًا أن تعرف من أنا؟

– من أنت؟

– دائمًا تريد أن تعرف. دائمًا حب المعرفة! … أيها الأحمق الفاني! … أما يكفيك أني أعطيك ما تطلب؟ كلَّ ما تطلب؟

– من أنت؟

– الشيطان.

دهش العالم ونظر إلى الوجه من جديد، فألفاه يبسِم تلك الابتسامة التي لا تتغير. فردد في بطء، وهمس كأنما يخاطب نفسه: الشيطان!

ودنا الوجه قليلًا من الشيخ، وقال في نبرة لطيفة: أتخافُني؟

– الشيطان …

– لا تخَف، انتظر.

وفي الحال أبصر الشيخ ذراعين وقدمين وبقايا جسم آدمي تأتي طائرة طائعة من أنحاء الحجرة، وتلتصق بالوجه حتى صار إنسانًا، وتغير الوجه فصار كوجه البشر، ومدَّ ذلك الإنسان يده إلى كرسي بجانب الشيخ، وجلس وهو يقول كالمخاطب لنفسه: «ها أنا ذا إنسان مثلك، ينبغي أن أكون إنسانًا مثلك حتى تفهمني، إنك أيها الإنسان لا ترى إلا من كان صورتك! إني في خدمتك.»

هدأ روع العالم قليلًا، وتذكَّر ما كان فيه منذ لحظة من ضيق بنفسه وتبرُّم بحياته، فاهتز في مقعده وصاح: أيها الشيطان، أعطني ... أعطني ...

– اطلب ما شئت.

– الشباب.

لفظها الشيخ الفاني من أعماق قلبه المتداعي.

فأجاب الشيطان في تؤدة: لك ما طلبت. لكن ... ما تعطيني أنت في مقابل هذا؟ إنَّ الشيطان لا يعطي لوجه الله!

فقال الشيخ من فوره: أعطيك العلم ... كلَّ ذلك العلم الذي اكتنزته مدى ثمانين عامًا.

فقهقهَ الشيطان: لا حاجة بي إلى هذه البضاعة، علمك لا ينفعني. إني أريد منك شيئًا آخر.

– ماذا؟

– نفسَك.

فلم يتردد الشيخ: هي لك.

عندئذ أسرع الشيطان ومدَّ يده في الهواء، والتقط قِرطاسًا نشره تحت المصباح وتناول ذراع الشيخ، ففزع الشيخ: ماذا تصنع؟

– لا تفزع من شيء. أريد قليلًا من دمك تكتب لي به صكًّا على هذا القرطاس. هو عهد بيني وبينك؛ أعطيك الشباب وتعطيني نفسك.

فأذعن الشيخ وكتب العهد بدمه، وتناول الشيطان العهد المكتوب، ورفع يده في الهواء، وعاد فوضعها على جسم الشيخ، فإذا شيخوخته تزول عنه كما تزول الأوراق الذابلة عن الشجرة الفتيَّة. وإذا العالم الهرم قد انقلب فتًى في العشرين، جميل الطلعة، بسَّام المحيَّا، مفعم النفس بالسرور، متوثِّب القلب للحب.

لم أكد أنتهي إلى هذا الموقف من قصة «فوست» حتى طرحت الكتاب، وهِمتُ في وادي التأملات.

كان الذي يملك عليَّ لبي في ذلك الوقت هو حب «المعرفة». كانت كل أحلامي أن أفتح في كل صباح نافذة تُطل على عالم مجهول من عوالم هذا الكون السابح في بحار الأسرار. كان من يكشف لعيني المستطلعة جديدًا هو الخليق عندي أن أعطيَه ما شاء من نفسي. في تلك الليلة صِحتُ في الحجرة: أيها الشيطان! أيها الشيطان! ابرُز إليَّ وخذ مني ما تشاء، وأعطني ما أريد.

ولم يبرُز إليَّ بالطبع أحد، ولم تنشقَّ الجدران، ولم تكن الصيحة التي لفظتها إلا صوتًا مدويًا داخل نفسي، وهو في الحقيقة همسة لم يبلغ صداها باب الحجرة؛ على أنني لم ألبث أن رحتُ في شبه إغفاءة. نصبَ فيها الخيال مسرحًا، وإذا الشيطان في ملابس «مفستو» الحمراء، ويده على مقبض سيفه، والابتسامة الخبيثة الساخرة على شفتيه وهو ينظر إليَّ قائلًا: أناديتَني؟

فهمست: نعم.

– ماذا تريد مني؟

– المعرفة.

فضحك ضحكة عالية طويلة، اهتزت لها الريشة القائمة على قرنه: هل تدرك مدى هذه الكلمة؟

فطِنت إلى مراده وصِحتُ مستدركًا: نعم … نعم … أدرك أنك أنت كذلك لا تحيط علمًا بمدى هذه الكلمة. إني ما أردت منك المستحيل، وما قصدت أن تعطيني «المعرفة» ذاتها. إنما أردت أن تمنحني «حب المعرفة». أريد أن تمنحني تلك النفس التي تعيش للمعرفة. أريد أن تعطيني ما أخذت من «فوست». أعطني «نفس» فوست التي أخذتها منه. أريد أن تكون لي نفس «فوست» أو نفس «جوته»!

– وماذا تعطيني أنت في مقابل هذا؟

– كل ما تطلب.

– الشباب.

– هو لك.

قلتها في غير تردد. فنظر إليَّ «مفستو» نظرة طويلة. نظرة العجَب أو الإشفاق — لو أن الشيطان يشفق أحيانًا — أو نظرة التاجر الماكر لصفقة خاسرة وقعت من غِرٍّ قاصر. وقال: سوف تندم.

– أبدًا.

– أفهم أن يُبذل كل غالٍ في سبيل «الشباب». أما أن «الشباب» هو الذي يبذل … اسمع نصيحتي يا فتى. إني لم أعتد إخلاصًا لأحد، ولكني أقول لك لا شيء في الوجود يعوِّض الشباب!

– المعرفة، المعرفة، المعرفة.

فضحك الشيطان ضحكة صغيرة هازئة، وقال كالمخاطب لنفسه: كان «فوست» يقول ذلك أيضًا في صباه!

فقلت في تحمُّس أعمى: حب المعرفة هو شباب العقل، هو الشباب الأبدي، هو السمو الإنساني الذي سجدت له الملائكة إلا أنت، أيها المتطاول على عرش فكرنا النوراني!

– عرش فكركم النوراني! ماذا أقول لهذا الفتى؟

– إني أعرفك وأبغضك، إنك هنا على هذه الأرض لا عمل لك إلا أن تطفئ هذه المصابيح العظيمة التي تزين هامتنا، إن في يدك عصًا طويلة كتِلك التي يحملها «عفاريت الليل»، يطفئون بها في مطلع الفجر «مصابيح الغاز» في الطرقات.

– ما أسخف مصابيح الغاز!

– نعم، ولقد ذهب عهدها بظهور الكهرباء، واختفت معها «عفاريت الليل» بعصيها. أنت أيضًا قد آن لك اليوم أن تختفي بسيفك وريشتك، فما من أحد يرضى اليوم أن يبيع «مصباحه» من أجل شيء.

– لقد باع «فوست» مصباحه من أجل فتاة.

– كان ذلك مصباحًا من الغاز.

– من الغاز أو الكهرباء، النور هو دائمًا النور!

– يا عدو النور. أعطني النور وخذ مني ما تشاء.

فقال الشيطان: OK.

وخلع قلنسوته ومسح بها الأرض بين يدي إغراقًا في التحية على طريقة فرسان «ألكسندر دوماس»، وتحرَّك للانصراف، فاستوقفته: ألا نكتب عقدًا؟

– لا ضرورة منك للعقود والعهود. إني واثق بشرفك.

– ولكني أنا ... معذرة ... إني لا أثق بشرفك.

– جرِّبني هذه المرة.

وانحنى لي انحناءة كبيرة ثم اختفى.

مضى على تلك الليلة ثلاثة عشر عامًا التهمتُ فيها الكتب التهامًا، وأحطتُ بمختلف العلوم والفنون علمًا، وعشتُ مع الفلاسفة والأدباء والموسيقيين والمصورين، وأحببتُ فيها «المعرفة» حبًّا كالجنون؛ فلم أكن أطيق صبرًا على جهل فرع من فروعها. وكنت أحيانًا لا أملك من النقود غير الضروري لأكلي بقية الشهر وأصادف في واجهة الحانوت كتابًا أو كتابين، فما أحجِم، وأدفع فيهما ما معي، وأتبلَّغ طول أيامي بمرَق الأرز ونقيع الشاي. وذهب بي الجنون إلى حدِّ الرغبة في الاطلاع على ما لا لزومَ لاطلاع أديب عليه. فنظرتُ في كتب الفلك

والعلوم الرُّوحانية والرياضيات العليا. وكانت أيام راحتي تنفَق في هياكل الفن ومتاحف التاريخ الطبيعي ودور الكتب والآثار. وكانت لي جلسات طويلة في ركن قهوة صغيرة منفردة آوي إليها وحيدًا أفكر ستَّ أو سبع ساعات متتالية في مسائلَ عويصة من مسائل الفلسفة المطلقة، أو قضايا الفكر، أو مشاكل العالم السياسية والاجتماعية والاقتصادية، ولكَم هدمتُ في رأسي مدنيات، وأقمتُ بدلها حضارات خيالية ذات نظم مثالية على نحو ما فعل أفلاطون وتوماس مور، ولكَم ألحدتُ ثم آمنتُ، وضللتُ ثم اهتديتُ، ولكَم كتبتُ ومزَّقتُ، ولكَم جهدتُ في سبيل اللذة العليا التي حسبتُها غاية الإنسان التي ليسَت بعدها غاية. ولقد هِمتُ بالنور وعشتُ حول النور حتى أحسست أن جسمي يرِق، وأن لنفسي أجنحة كأجنحة الفراش. ولقد صرتُ كالهواء أو كالملائكة أسهر الليل سابحًا في أجواء الفكر فوق كتاب مفتوح تحت مصباح مضيء، حتى إذا جاء الصباح رقدتُ وهربتُ من الناس والضجيج. إلى أن نبهتني آخر الأمر خادمٌ عجوز قائلة: حياتك هذه ليست حياة. انظر إلى وجهك في المرآة!

فنظرت مليًّا في مرآة خزانة الملابس فارتَعتُ. ما كل هذه التجاعيد حول عيني؟ وما هذا الظهر الذي تقوس وانحنى؟ وما هذا النحول وهذا الشحوب؟ … أتراني قد نسيت جسمي طول هذه الأعوام؟ أم تراه الشيطان قد تقاضى الثمن دون أن أعلم؟ وهالني منظري وأنا أضعُ أصبعي على تلك الخطوط المخيفة على صفحة وجهي كأنها صكٌّ بزوال زهرة الحياة إلى الأبد، فما تمالكتُ أن صحتُ: الشباب. الشباب. لقد أخذ الشباب!

في النوم

إذا جنَّ الليل، ورقد الناس، وسكنَت الكائنات، قام هو في خفة الطائر، ورقة النسيم، ينسج قصصه العجيبة بأناملَ لا يعرف وصفها إنسان. ذلك هو الحُلم. فنان حاذق يأتي بالمعجزات في رءوس النائمين.

وهو ككلِّ فنان محترف كتِب عليه الإنتاج في كل ليلة، لا يبرأ من الإسفاف، ولا يستطيع أن يجيد في كل حين. فهو لا يخرج دائمًا في كل الرءوس آيات متناسقة البناء، شيقة الحوادث، مستقيمة التفكير. إنه هو أيضًا ضحية «الروتين» الذي يقتل الفنانين.

لكنه إذا أبدع أوحى. وإني لأعرف كتَّابًا يستلهمون الحلم. وإني لأذكر خبرَ كاتبٍ روسي أو مجَري كان يأكل قبل النوم حتى الكظة؛ طالبًا التخمة، راغبًا في الكابوس يصوِّر له من الحوادث المخيفة ما ينفعه في استنباط قصة. أما أنا فأبغض الكابوس ولا أريده، ولو ألهمني خير القصص فإن لحظةً أقضيها في جوه الخانق لأشقُّ على نفسي من الجحيم؛ غير أني لا أنسى رؤيا منسجمة الفكرة متصلة الخيوط، رأيتها ذات ليلة، فاستطاعت أن تشغل بالي في الصباح، وأن تقبضني على القلم، وأن تستكتبني هذه السطور:

رأيت أني معها في حجرة واحدة. أما هي فغادةٌ حسناء، ذلك النوع من الحسن الذي أحبه. ولست أدري كيف عرف الحلم ذوقي فاختار لي مثل هذه المرأة! جلسنا معًا وهي في ثوب أخضر خفيف. وكأن بيننا حبًّا قديمًا، والحلم خير من يلعب بالزمن كما يلعب المصور بالألوان. فلم نكن نعيش، أنا وهي، إلا في ثوانٍ … لكنها كالأعوام، لها ماضٍ وذكريات. يحيط بنا إطار مصنوع من جوهرٍ لا أدري ما هو، لعله ما يسمونه «السعادة». وفجأة، طرق علينا الباب. وظهرت خادمة تعلن في صوت خافت أن زوج الفاتنة قادم. هرج واضطراب وقعَا في الحجرة. فقفزت أنا من مكاني أبحث عن حذائي. ونهضَت هي في

سرعة الريح إلى المرآة تصلح من شأنها. وتملَّكني الوهم وحرج الموقف فعجزتُ عن إدخال قدمي في الحذاء، ورأت هي ما أنا فيه، فصاحَت بي: عجِّل بالخروج!

– لا أحبَّ إلى نفسي الآن من الخروج سالمًا. لكن الحذاء …

– ألا تريد أن تنصرف؟

– حافيًا؟ هذا لا يجوز. وهل أنتِ ترضين لي الخروج على هذه الحال؟

فلم تجِب وجذبتني من ثيابي، ودفعتني إلى الباب، فخرجتُ أحمل حذائي في يدي، وإذا أنا — وجهًا لوجه — أمام رجل وسيم الطلعة، أنيق الهيئة حيَّاني باسمًا؛ فارتجفت ونظرت إلى عينيه، فلم أرَ فيهما غضبًا ولا سخرية. وأشار لي في كياسة أن أضع الحذاء في قدمي على مهل. فقلتُ متلعثمَ اللسان: أشكرك يا سيدي على هذا اللطف.

وحاولت أن أفعل ما أراد فلم أستطع؛ فلقد حَرَن الحذاء مرة أخرى، وأبَى أن يلين لتوسلاتي الحارة ولعرقي المتصبب في هذا الظرف المؤلم. وخرجَت «الحسناء» زاهيةً كالقمر، فما إن رأت الرجل والرجل رآها حتى وقع أحدهما في أحضان الآخر، وقبلات …

وشعرت في أعماق نفسي وقتئذٍ أني لا أصلح للبس الحذاء ولا الانصراف، ولا لصنع شيء في هذا الوجود! فجلست القرفصاء أنظر وأسمع ولا أدري لي مصيرًا. وفرغَا من القبَل ولكنهما ظلَّا متعانقين وهي تقول له: أهذا شغفك بي؟ مضى عام دون أن أسمع عنك خبرًا!

– ألا تعرفين ما حدث؟ لقد أمسينا من أصحاب الملايين.

– ملايين؟! كيف؟ كيف؟ أخبرني!

– أنا الآن «مليونير».

– أتقول حقًّا؟ وا فرحتاه! تعال فقُص عليَّ كل ما حدث منذ أن تركتني وسافرت إلى تلك البلاد النائية!

وتناولَت يده، تقوده إلى الحجرة، فعثرَت قدمها الصغيرة بشخصي الحقير، ولم يزَل موضوعًا إلى جانب الحذاء. لكن أي حذاء. إني فيلسوف. كما أن هذا الرجل المحترم، زوجًا كان أو غير زوج، فيلسوف هو أيضًا فيما يبدو لي. ذلك أني لم أكَد أسمع أن الرجل صاحب ملايين حتى أدركتُ أن لا محلَّ الساعة للبكاء على حب! ورنَّت في أذني تلك اللحظة كلمةٌ هائلة ضاحكة: «الذهب»! كما رنَّت ولا ريبَ في قلب الحسناء فنسيَت كل شيء. وصرتُ في نظرها، أنا وحذائي على عتبة الباب، كائنَين متساويَين! نسيَت كل شيء وشيكًا؛ لأن «الذهب» كلمة جليلة عظيمة، لها صوت مدوٍّ مهيب كصوت حوافر جياد مطهمة على أرض

من الرخام الأصفر ... كلمة كالدخان السحري ترى خلالها القصور والعروش والحلى والتيجان! ونسيتُ أنا أيضًا كل شيء كان ويكون، حتى ما أنا فيه من ذل وتعس. كما نسيتُ أن أنهض من الأرض، وأن أرفع يدي عن حذائي الذي لم يوضَع في قدمي ولن يوضَع. ومرَّ بي هذان السعيدان ... في حرص واحتياط حتى لا يعثرا بي في طريقهما إلى الحجرة. فقلتُ في أدب خالص: دوسَا، لا مانع عندي مطلقًا من أن تدوسَا!

واستحوذَت عليَّ مشاعر غريبة. لست أعلم لها اسمًا بين مشاعر الناس. فلم ألبث أن تقدمتُ نحو الرجل وقلتُ في احترام عميق: لقد أشرق النور في هذا البيت مذ حللتُم به، وإن سيدتي كانت شديدة القلق، كثيرة الهم لغيبَتكم الطويلة حتى أسعدَها الله أخيرًا بأوبَتكم الظافرة الميمونة.

فالتفتَ إليَّ الرجل في استغراب خفيف، ولكن الدهشة كلها كانت دهشة المرأة. ولم أمهِلها حتى تُفيق، فوجَّهت إليها من فوري الخطاب: أما كنتِ يا سيدتي تذكرينه دائمًا في شوق ولوعة؟ ها هو ذا قد عاد ولا ينقصكما الآن إلا خلوة تتبادلان فيها رقيق العتاب، حتى تصفو القلوب، ويتصل بينكما ما انقطع بطول الفراق.

وانتظرت أن أحظى منهما بجواب، فلم ألقَ إلا سكوتًا باردًا ونظراتٍ فاترة. وتحركًا آخر الأمر نحو الحجرة ودخلاها وأغلقا عليهما من دوني الباب، وأنا واقف جامد، وكأني لا أعيش. وثُبتُ إلى نفسي قليلًا، فإذا عرقٌ يسيل من كل بدني: لماذا صنعتُ هذا وقلتُ هذا؟ وهل سألني واحد منهما أن أكون لهما رسول سلام؟ وهل هما في حاجة إليَّ، حتى يدخل قلبيهما الصفاء؟ ومن قال إنهما كانا غاضبين؟ إنهما الآن مثلُ كل متحابَّين مؤتلفَين لا يطلبان إلى أحدٍ أن يمشي بينهما بخير أو بشرٍّ. ينبغي أن أفهم الآن أني قد طُردت من الفردوس حافيَ القدمين.

وانتهى الحُلم من تأليف قصته، وسكتَ عن الكلام المباح وقد أدركه الصباح. واستيقظتُ فوجدتُ أني حقيقةً عاري القدمين وقد سقط اللحاف عني، ولكن ستار النسيان لم يسدَل في رأسي على الرواية، فقد تركَت في نفسي أثرًا عميقًا. وطفقتُ أقول:

«حتى الحلم، ذلك الفنان البارع، لا يملك لمثلي من ذلك الجوهر الطيار الذي يقال له «السعادة» غير مقدار قليل لا يشفي الغليل!»

«راديوم» السعادة

استعرضتُ في رأسي البارحة شريطًا ذا ألوانٍ من ذكريات الماضي. أما الألوان فكانت خضِرة داكنة لأشجار الزيزفون والكستناء المحيطة بذلك الوكر الجميل المسمَّى «أورياج»، ألقَته يد الطبيعة في بطن وادٍ سحيق من وديان «الألب»؛ ليُذكِّر الناس بالفردوس المفقود. ولقد هبطت هذه الجنة في شهر أغسطس عام ١٩٣٨م أحمل حقيبة واحدة، فيها «بذلة» واحدة وكتاب واحد: هو «العقد الفريد» لابن عبد ربه بكامل أجزائه.

ولم تكن الحقيبة تتسع لغير هذا الثوب وهذا الكتاب، ولم يكن شيء أبغض إلى نفسي في الأسفار من كثرة الحقائب، فطال ترددي وأنا أتجهز للسفر: أأحمل «بذلة» أخرى وأترك «ابن عبد ربه»؟ واستقر عزمي آخر الأمر على إيثار «الزميل» أعبر به البحار والجبال، وأصطحبه إلى بلاد لم تطأها قدمه، وأُريه مناظر لم ترَها عينه؛ فللأديب على الأديب حق، وليس من الوفاء حرمان «ابن عبد ربه» مثل هذه النزهة. فنبذتُ الثياب وأخذتُ الأديب، وانطلقنا.

بلغنا جنة «أورياج»، ونزلنا فندق «الروض» وهو بناء جميل أقيم على بساط من العشب، قد اضطجعت عليه حور من الفرنسيات يتحدثن في ظل الأغصان المدلاة إلى ولدان وفتيان، أو يصغين إلى أنغام موسيقى يحملها النسيم، تعزفها فرقة في شبه ميدان وسط المصيف.

وكانت مائدة طعامي بالفندق في طرف ناءٍ، فلقد احتلَّ من نزل قبلي الأفاريز المشرفة على المناظر الرائعة، ولكني لم أحرم مع ذلك منظر مائدة إلى جواري جلس إليها فتى وفتاة، قيل لي إنهما تزوجا حديثًا.

لقد كانا زهرتين ناضرتين في باقة «فندق الروض». وكنت أنا دائمًا وحدي، ليس معي من رفيق غير «ابن عبد ربه» وقد وضعته أمامي فوق المائدة إلى جانب زجاجة «الفيشي».

نعم لم يكن يخطر لي على بالٍ أن هذا الأديب يلازمني على هذا النحو في كل مكان، لقد اعتدتُ ملازمته كما اعتدتُ من قبل ملازمة عصاي. فأنا لا أخرج من الفندق في الصباح، ولا أعود في المساء، ولا أذهب إلى قهوة ولا إلى ملهًى إلا ومعي «ابن عبد ربه». حقيقة إن في جوف هذا الأديب كثيرًا من طلى الحديث، وهو خير أنيس وجليس في مثل وحدتي وعزلتي.

ولكن … أما كتِب لي أن أظفر بجليس أجمل منه سحنة، وأعذب منه صوتًا؟ لقد كنت أتأمل من طرف خفي هذين الزوجين السعيدين، فيخيَّل إليَّ أني أرى منهما أشياء. إنهما لا يتحادثان كثيرًا، وكل منهما يأكل وهو مطرِق، ولقد لاحظتُ أن الزوج ما يكاد يفرغ من أمر طعامه حتى يترك امرأته ويختفي اختفاءةً لا يظهر بعدها إلا على مائدة الوجبة التالية. وكان الذي يشغَل فكري وقتئذٍ البحث عن «قهوة» هادئة أجعلها مقرًّا لي وللأديب الذي معي وللورق الذي في جيبي. فأنا لا مطمعَ لي في رياضة شاقة كتسلق الجبال، ولا رياضة هادئة كلعب «التنس». وليس في الناحية جدول قريب أصطاد منه السمك، وهي رياضتي الوحيدة التي أحذقها … «أستغفر الله على كلمة «أحذقها» وهو الشاهد العدل على مبلغ حذقي إياها!» وعثرت آخر الأمر عند أقدام أشجار باسقة قد تهدَّلت أغصانها كجدائل الشعر الكثيف، على «قهوة» صغيرة في شبه كوخ من خشب نُثِرَت حوله المقاعد والموائد. فقلتُ في نفسي: ها هنا مكاني. فاتخذتُ مقعدًا فوق العشب، والتفتُّ أطلب الساقي يحضِر إليَّ فنجانًا من الشاي. فإذا أنا أمام ساقيةٍ كالبدر. وإذا أخرى على باب الكوخ كالشمس. وإذا ثالثة وهي الصغرى تخطر في خفة الغزال بين الموائد، ناثرةً قطرات اللطف والظرف، في صورة ابتسامات ساحرات، ذات اليمين وذات الشمال. إذا قلتُ إني في حياتي لم أرَ أظرف من هذه الفتاة ما كذبتُ، وإذا أقسمتُ أن هذه الفتاة ما خُلقَت إلا لتتلقَّى نظرات الإعجاب من الناس لما حنثتُ. الدليل تلك الأعين التي ترمقها من كل جانب، وتلك الأفواه التي تناديها من كل مائدة. كان اسمها «فرانسواز».

وفرغتُ من دهشتي قليلًا فأجلست «ابن عبد ربه» على مقعد خال بجواري، وأردت أن أشير إلى الفتاة لأطلب فنجان الشاي، وإذا غيري يسبقُني: «فرانسواز»! كأسًا من البيرة.

فانتظرتُ لحظة ثم هممتُ بندائها. وإذا صوت آخر: فرانسواز! كوبًا من شراب البرتقال!

فسكتُّ مرغمًا. ثم عاودني الأمل فرفعتُ رأسي إليها، وإذا صيحة: فرانسواز! فرانسواز!

فالتفتُّ فإذا ذلك الزوج الشاب الذي يهجرُ زوجته في الفندق بعد كل طعام، قد جاء في شبه ركض وجلس إلى مائدة قرب مكان الفتاة، وطفق يحدثها حديثًا ازدحم به فمه، وهي

تضحك أحيانًا ضحكًا رقيقًا يتمايل له غصنها الرشيق، وأشرقَت السعادة في وجه الشاب. وإذا صفاؤه قد عكَّره صوت فتيانٍ آتين بملابس «التنس» يصيحون قبل أن يجلسوا!

– فرانسواز! فرانسواز!

فالتفتَت إليهم الفتاة وابتسمَت، ثم استأذنَت محدِّثها وانطلقَت إليهم، فاستقبلوها في شبه هتاف وظلوا لحظة يتضاحكون. هؤلاء فيما يخيَّل إليَّ فتيان من طلبة الجامعة. فإن هذرهم وضجيجهم وما يبدو من سنهم ينمُّ عن ذلك. وكان أكبرهم سنًّا فتًى معتدل القامة، جميل المنظر في سروال «التنس» الأبيض وقميصه الخفيف وسواعده العارية. وكان هو أكثرهم اهتمامًا بأمر الفتاة. طفقتُ أنظر إلى كل هذا، وذكرتُ أن ذقني لم يُحلق منذ ثلاثة أيام، وتلك أيضًا عادة من عاداتي. فأنا لا أفكِّر في ذقني وهندامي إلا مصادفة.

ثم ذكرتُ قلنسوتي «البيريه» التي تهبط إلى أذني كأنها «لبدة» وعصاي الغليظة وكتابي الضخم بغلافه السميك القديم، كأنه سِفر من أسفار السحر والتنجيم. فأدركت أن منظري لن يؤهِّلني إلى طلب فنجان الشاي في هذه القهوة! أأنهض إلى غيرها؟ هذا مستحيل. إن هذا الجو الشعري الجميل الذي يكتنف هذه القهوة هو في ذاته متعةٌ دونها كل متعة. وطال جلوسي، وطالت مشاهدتي، ومر الوقت سريعًا دون أن أشعر به، وقام أناس، وقعد أناس، وأنا في مكاني لا يشعر بي أحد، ولا أطلب شيئًا إلى أحد. لقد خجلتُ أن أسترعي التفاتَ الساقيات الثلاث ما دامَت أنظارهن لا تريد أن تقع على مثلي! وجعلتُ أسأل نفسي في نبرة مريرة، وروح كسيرة: ماذا يمنعني من أن أعيش كما يعيش هؤلاء الأحياء؟ ما أحسبني قد بلغتُ سن اليأس. وأنا الآن بالمصيف في شهر راحة. ماذا يمنعني من حلق ذقني كل صباح وترتيب شعري وتعريضه للشمس والهواء، وارتداء مثل هذا السروال الأبيض الجميل، والقميص ذي السواعد العارية؟ لم أتلقَّ جوابًا عن سؤالي. ولكن نظرة مني وقعَت على صديقي «ابن عبد ربه» الموضوع إلى جانبي أدركتُ معها في الحال من المسئول عن كل ما صرتُ إليه!

نعم، وا أسفاه! نعم. ووددتُ لو أنقض عليه؛ فأقطعه تقطيعًا وأمزقه تمزيقًا، ولكني اكتفيت بحمله بين يدي في سخط شديد، كمن يحمل كتابه الذي سطرت فيه لعنته وقدره المحتوم.

وعند ذلك حانت من الفتاة التفاتةً إليَّ وفطنَت إلى وجودي، فأسرعَت إليَّ تقول في ابتسام واعتذار: نسيتُك يا سيدي.

فأجبتُها في ابتسام وتسامح: لا بأس. إنك على كل حال لم تنسي شيئًا ذا خطر.

وأحضرَت إليَّ ما طلبتُ. ولم نتبادل كلامًا أكثر من ذلك، ولكني سعدتُ به، فنحن معشر الأدباء المساكين نرضى بالقليل، ويكفي لإسعادنا وإلهامنا أتفه الأشياء.

كثر اختلافي إلى هذه القهوة، وكنت في كل مرة أرى عين الأشخاص يلعبون عين الأدوار.

فالطالب في لباس «التنس» ينادي «فرانسواز» في كل لحظة، ولا يشبع من الحديث معها، ولا يضنُّ بطلب مشروب بعد مشروب، استبقاءً للساقية الجميلة إلى جواره. ولقد سمعته ذات مرة وقد انفلتَت من فمه هذه الكلمة: أوه! لقد خربتُ وأفلستُ. وأضعتُ كل نقودي في هذه القهوة!

ويلبث في سروره وضحكه وهذره ساعة ثم يمضي إلى ملعبه، مطوِّحًا بـ «مضربه» في الهواء فرحًا سعيدًا.

ويأتي الزوج الشاب، وقد ترك زوجته في الفندق وحيدة متذمرة تعسة مرتابة، فينادي: «فرانسواز» ويطلب السعادة هو أيضًا ساعة في عينيها الباسمتين غير مبالٍ بخطر فقدِ زوجته في هذا السبيل.

تأملتُ كل هذا لحظة، ثم قلتُ لنفسي: هذان شابان جميلان، ومع ذلك فقد أضاعا شيئًا في سبيل لحظة هناءٍ إلى جوار هذه الفتاة. ماذا أُعطي أنا من أجل لحظة تحادثني فيها هذه الفتاة؟ نعم، هنا كل سعادتي ومطمعي: أن أسترعي اهتمامها لحظة، وأن تُقبل على أن تُحادثني حديث المشغوف بمحادثتي!

لكن ... هل هذا ممكن الحدوث وقد ابتليتُ بصحبة هذا الزميل المنحوس؟ وانكببتُ على ورقي الذي كنت قد نشرتُه، وفتحتُ صدر «ابن عبد ربه» أمامي ووضعتُ فيه همي. وكأن القدر شاء مداعبتي أو أراد متعمدًا أن يكشف لي قليلًا عن جوهر نفسي المحجوب عن عيني، فأحدثَ المعجزة! وإذا الفتاة تدنو مني مبتسمة متعجبة وتقفُ لحظة ترمق سطور «ابن عبد ربه» وهي صامتة، وفطنتُ إلى قربها، فاضطرب قلبي ورفعتُ رأسي، فابتدرَتني قائلة في همس: أهذه كتابة صينية؟

فضحكتُ وقلتُ: بل عربية.

– ما أعجبها! أتستطيع أن تقرأ هذا «النبش» في سهولة؟

– بالطبع. وأكتبه أيضًا.

– وتكتبه؟

– نعم. انظري ...

ومضيتُ أكتب أمامها، وهي دهشة مسرورة. وجعلَت تستفسرني كثيرًا من معاني الكتاب. وقاطعها النداء من كل جانب فكانَت تذهب لتلبِّي ثم تعود إليَّ تحادثني مغتبطة، وقد تطرقَ الحديث إلى موضوعات كثيرة. وقد أدركَت من حديثي أن الكتاب صناعتي، فأقبلَت تعرض عليَّ ألوانًا من حياتها تصلح قصصًا. وبدا عليَّ السرور أول الأمر. وبدأتُ أحترم «ابن عبد ربه»، فبفضله تم كل هذا، لكن ما كدتُ أتردد على القهوة مرة أخرى وتُقبل عليَّ الفتاة تحادثني ذلك الحديث الطويل في مختلِف الشئون، حتى أحسستُ أن كل شيء قد تغيَّر في نفسي؛ فالأشجار ليست الأشجار، والجنة ليست الجنة، ووجهها لم يَعُد فيه السحر القديم، والجو الشعري قد ارتفع عن القهوة. ذهب السحر وتهتكَت أستار الأسرار. وما أنا والفتاة الآن إلا صديقان ثرثاران!

وشعرت عندئذ أنَّ لا شيء عاد يربطني بالقهوة وودتُ لو تركتُها إلى غيرها حتى أفرغ للعمل، وأتم الفصول الأولى التي بدأتُها مدفوعًا بتلك القوة الهائلة من لحظة سعادة خفيفة مرَّت. عند ذلك فهمت أن السعادة التي تلزم لنا نحن الفنانين؛ لنقوم بالأعمال الكبار ينبغي أن تكون بمقدار! مقدار صغير ثمين مثل «الراديوم»، فإذا انغمرنا في حوض من هذه المادة السحرية فإنها تنقلبُ في نظرنا ماءً قراحًا لا فعل له ولا أثر.

وتأبطتُ «ابن عبد ربه» أخيرًا، وانصرفتُ به وقد ... انتصر!

في حانة الحياة

ساقون ثلاثة في «حانة الدنيا» إذا ناديتهم أقبلوا بالكئوس وهم يرقصون، وفي عيونهم وشفاههم بسمات خفيفة ساخر لا ترتاح لها نفس ... أول «جرسون» من هؤلاء طفل؛ وهو أبدًا طفل وعمره خمس سنين ... ويدعونه «الحب»، والثاني رجل وهو أبدًا رجل وعمره أربعون سنة ... ويسمونه «الشيطان»، وثالثهم لا عمر له ويدعى «الموت»، والموت هو «البارمان» لهذا الحان. وهو الوحيد من بين الثلاثة الذي لم أفكر يومًا من الدنو منه، وقد زهدتُ من أجله في الشراب على «البار»! ... منظره لا يعجبني وحسبي منه وقفته الوقحة، و«فوطته» القذرة التي بها ألف خرق، وضحكته التي كسعال المسلولين، وأسنانه الصفراء العفنة من تأثير إدمانه التدخين والمغيبات. إنه «يُقرفني» ومحال أن أتناول شيئًا من يده طوعًا واختيارًا.

أما «الشيطان» فيعجبني بطلاقته وزلفاه وذكائه. ولولا علمي أنه محكوم عليه غيابيًّا ... وأنه من أرباب السوابق في جرائم النصب والاحتيال ... لركنَّا إليه ... أنا وكافة «الزبائن».

أما «الحب»؛ فالويل من هذا الطفل الجاهل الجميل! إنه يأسرني بلطفه ورقته ... أجل إنه الساقي الوحيد الذي أتناول من يده كل شيء ... وبلا تحفظ. غير مبالٍ إن كان ما يعطيني سمًّا أو «شمبانيا».

ناديته في الربيع الماضي فأقبل يحمل إليَّ الكأس ... ووقف ينظر إليَّ برقَّة ساحرة، ويبتسم إليَّ بابتسامة خلابة تحوي أشياء لم أكن أدركها في ذلك الحين: ماذا تريد! ... «البقشيش»؟

– كلا ... أريد ألا تطلب إليَّ شيئًا بعد ذلك ... إياك أن تطلب قليلًا من الثلج ... إن طلبت قليلًا من الثلج فلن آتي لك بطلبك.

– اطمئن ... لن أطلب إليك شيئًا ... أبدًا ... لا «ثلج» ولا «صودا».

وأقبلتُ علي الكأس ... لكنه استوقفني أيضًا. وغافلني وحمل الكأس وجرى قليلًا، ثم ضحك ضحكة صبيانية، وقال في نبرة ملائكية: سأعذبك.

غير أني لم أسمع ولم أرَ ولم أدرك إلا شيئًا واحدًا؛ إنه حمل الكأس وابتعد. فارتجفت وصحت مدفوعًا بالرغبة والظمأ: هات الكأس يا جرسون.

فاقترب به من شفتي ... وقال بنفس الصوت الموسيقي العذب: سأعذبك!

– هات الكأس يا جرسون!

– سوف تلعنني.

– أنا؟!

– سوف تمقتني.

– أنا عبدك.

– سأعذبك.

– هات الكأس.

– خذ!

ومضى عام.

– يا جرسون ... يا جرسون!

– ماذا تريد؟

– الثلج ... في الحال ... الثلج!

– لقد أنذرتك.

– أرجو منك ... قطعة واحدة من الثلج!

– لقد أنذرتك.

– قطعة ... ولك ما تريد.

– هيهات ... هيهات!

– لا تبتعد ... لا تهزأ بي ... لن تتركني قبل إحضار الثلج.

– هيهات ... هيهات!

– لقد خدعتني ... ما كنت أظن طفلًا بريئًا جميلًا يجرؤ على هذه الجريمة: يقدم إليَّ بدل ماء الكروم ماء النار!

– الكروم والنار ... يا لك من غِرٍّ ساذج! ... الخمر والنار هما عنصرا حياتي. وهما لون خدودي ولون شرابي!

– قطعة من الثلج ... ولك ما شئت!
– محال!
– رحماك!
– لو كنت عاقلًا لأدركت أن الثلج ليس في عهدتي.
– لماذا؟! ... لماذا؟!
– سَل صاحب الحان.
– أنقذني ... لعنة الله عليك.
– الثلج لا يمكن أن يكون في عهدتي.
– آه يا ملعون! وما العمل؟
– عليك بجرسون آخر.
– جرسون آخر؟! ... من؟! من؟!

فجرى «الحب» إلى «الشيطان» وأسرَّ إليه كلامًا، ثم أشار بيده إليَّ أنا «الزبون» المسكين، وإذا «الشيطان» قد أقبل نحوي: أنا ... هو ذا ... ما طلبك؟ ... أنا القدير على تنفيذ رغبتك ... مُرنِي أُطِع أيها السيد النبيل!

– الشيطان!
– خادمك!
– كلَّا مستحيل! أنت من أرباب السوابق.
– مظلوم وربك، لم يَثبت ضدي شيء ... لا تصدق وشايات الناس. وربك إني متهم زورًا وبهتانًا.
– ما الدليل على براءتك؟
– هاك ... «رخصتي» ... بيضاء كقلب الجنين!
– أليست ... مزورة؟ ... على كل حال أنا في حاجة إليك الآن! إني في حاجة شديدة إليك ... أسامع؟
– محسوبك.
– الحب ... هزَأ بي ... انتقم لي.
– آسف! الحب زميلي وليس لي عليه سلطان.
– ما العمل إذن؟
– دع الانتقام ... وفكِّر في الدواء.

– الدواء ... الثلج ... قطعة من الثلج ... إذن!

– الثلج ليس بالدواء ... الدواء هو ...

– هو! هو ماذا؟ تكلم؟

– هو الداء ... وداوها بالتي كانت هي الداء.

– ماذا تعني؟

– اطلب من «الحب» كأسًا أخرى!

– قل سمًّا آخر، نارًا أخرى سائلة في كأس صافية! ... لا، أيها النصاب لقد خدعتَني مرة.

– ومن أدراك؟ ربما في هذه المرة ...

– اخرس ... يا منافق ... دوائي الثلج ... وأنا أدرى الناس بدوائي ... أعطني قطعة من الثلج ... أسرع بالثلج.

– محال.

– أنت أيضًا.

– الثلج ليس في عهدتي.

– كيف ذلك؟ ... كيف ذلك؟

– سَل صاحب الحان!

– وما العمل؟ ... ارحمني!

– أدلُّك على «جرسون» آخر ... وأوصيه بك خيرًا ... فلطالما أوصيته عند اللزوم بزبائننا الكرام.

وجري «الشيطان» مهرولًا إلى «الموت» وأسرَّ إليه كلامًا، ثم أشار إليَّ أنا «الزبون»؛ فتقدم «الموت» في بطء وهو يبتسم ساخرًا: من ذا الذي طلبني؟

– الموت! ... آه ... لا ... لا ... لا ... أبدًا.

– عجبًا لكم يا معشر الزبائن ... كلكم متشابهون ... تطلبون ثم تنكرون! ألم تطلبني أيها الزبون؟ ها ... حا ... حا ... حا ...

– لا تسعل في وجهي ... اغرب عني.

– عجبًا لك! ... حا ... حا ... سعالي يخيفك ... أتحسبني مسلولًا؟ ... لا ... أخطأت! هذا من الأفيون، نعم ... ها ... حا ... حا ... ألا تحب تعاطي الأفيون؟

– بالله ... ابتعد ... أسنانك الصفراء ... ابتعد ... ابتعد.

– والثلج ... ألا تطلب الثلج هو في عهدتي ألا تريد؟

– في عهدتك؟!

– في عهدتي دائمًا ... من يوم «نزولي الخدمة»، بهذه الحانة.

– كلَّا لا تقربني ... قلت لك ... لا تقربني ... أستودعك الله!

– إلى أين؟! حا ...

– ابتعد عني ... أنت لا تطاق ... رائحتك كريهة.

– والثلج ... حا ... حا ... ألا تطلب ثلجًا ... أبيض ... تعالَ لا تخف ... تعال ... ثلجًا أبيض مثل الكفن!

– النجدة ... النجدة ... يا جرسون «حب»، يا جرسون «شيطان» ... يا صاحب الحان ... أنقذوني من هذا الجرسون الفظيع ... كل شيء يطاق إلا هذا الجرسون البارد الفظيع.

حقوقي على نفسي

في ذات صباح دخل عليَّ حارس بابي وقدَّم إليَّ خطابًا، قال إن صاحبه ينتظر الإذن بـ «المثول». وفضضتُ الغلاف وقرأتُ الخطاب؛ فإذا هو معجب متحمس قد ذهب الإعجاب برأسه؛ فجاء من بلدته وتحمل نفقات السفر؛ كي يظفر بخمس دقائق يرى فيها ذلك التمثال من الحكمة فوق عرش من الذهب، أو ذلك المخلوق العجيب الذي تتساقط من فمه درر الفن والأدب، فتملأ أحواضًا حوله يسبح فيها بطٌّ وإوز من الفضة والماس، وتنبتُ فيها أزهار من النور والبلور. إلى آخر هذا الخيال الذي لمحتَ أثره بين السطور. وكان عندي وقتئذٍ أديب معروف اطَّلع على الخطاب وقال: هذا يذكرني بأحد الموسيقيين في القرن الماضي، مشى من بلده على قدميه ليرى «ريتشارد فاجنر»، فلما بلغ حيث يقيم اكتفى بمشاهدة خيال الأستاذ قائمًا خلف زجاج نافذته، وقفل إلى بلده غانمًا باسمًا.

فقلت لصديقي: لا محل هنا للمقارنة. فأنا لست «ريتشارد فاجنر»، وصاحب الخطاب لن يقنع مني فيما يظهر بشبح مارٍّ خلف نافذة.

لا تنسَ أنه دفع نفقات السفر ليرى مناظر قد صورها خياله منذ أيام وشهور، وليعيش تلك الدقائق الخمس في جو عُبِّق بأحلام وأوهام ساورته في ليالٍ طوال، وهو يقرأ ذلك «الهراء» الذي ملأنا به كتبًا ذات ورق صقيل وطبع أنيق. أي خيبة أمل ستصدم نفس هذا المسكين إذ يجتاز الساعة عتبة هذا الباب.

وترددت قليلًا. ولاحظ صاحبي ترددي فقال: ائذن له على كل حال.

فأذنت، وليس في مقدوري أن أفعل غير ذلك. فإن رفْض المقابلة في مثل هذه الحال قسوة وسوء أدب. ودخل الزائر، فإذا شاب يتقدم في حياء واضطراب. سلَّم في احترام، وجلس حيث أشرت إليه. ولبث صامتًا مطرقًا ينتظر مني أن أبدأ الحديث. ولم أجد أنا ما

أقول. وطال صمتنا. ورأى صديقي الأديب أن الموقف قد فتر وبرد إلى حدٍّ أخجل الشاب فوق خجله، فافتتح الكلام في لباقة قائلًا للشاب: أنت قرأت للأستاذ طبعًا …

فاندفع الشاب يقول في قوة وتحمُّس: كل شيء. كل شيء من «أهل الكهف» الخالدة إلى آخر مقال ظهر في الصحف للأستاذ.

فلم أنظر إلى الزائر، والتفت إلى صديقي الأديب وقلت: ألم تدركها الوفاة بعد «أهل الكهف الخالدة»؟ … إن هذه «الخالدة» جديرة أن تموت «حرقًا» كما تموت الساحرات الكاذبات.

فاحمرَّ وجه الشاب وأراد أن يقول شيئًا. لكني مضيت في كلامي: إني أرجو ممن يسبغ مثل هذه الصفات على مثل هذه القصة أن يقرأها بعد عشرة أعوام. فإن استطاعت أن تحتفظ بسحرها عشرة أعوام فقط حُقَّ لك أن تعجب وأن تغتبط.

فلم يُطق الشاب صبرًا وصاح بي: لا تقل ذلك … لا تقل ذلك أنت ولا شك لم تقرأ …

ولم يتم. فقد قاطعه صاحبي الأديب بقهقهة عالية وهو ينظر إليَّ: أسمعت؟ إنك لم تقرأها … وإنك لتحكم على شيء ليس لك به علم.

وخجل الفتى الزائر قليلًا، وتمتم باعتذار خافت وقال: إني قرأتها كثيرًا. لا أذكر كم من المرات. فإذا لم تكن هذه القصة خالدة فما هي القصة الخالدة؟

– إنها «خالدة» إذا هبطنا بسعر «الخلود» إلى خمسة أعوام!

فاحتجَّ الشاب وحرَّك يده على نحو عنيف؛ فلم ألتفت إليه، واتجهت شطر صديقي الأديب وقلت: إني لن أنسى يوم شاهدت هذه «القصة» تمثَّل للمرة الأولى. لقد خرجت من إطارها الساحر. هذا الطبع الأنيق والورق الفاخر. فإذا هي شيء هزيل لا يكاد يقف على قدميه. وإذا سحرها الوهمي الكاذب قد طار عنها كما يطير الريش الملون عن الطاووس الجميل فلا يبقى منه غير شبه جيفة من اللحم الأزرق والعصب الضئيل. هذه القصة التي لم تثبت لـ «التمثيل» أتستطيع أن تثبت لـ «الزمن»؟

فتململ الشاب ونظر إلى صاحبي الأديب نظرة المستنجد وقال له: إني لم آتِ اليوم لأسمع هذا الكلام من الأستاذ.

فأجابه صاحبي باسمًا: إن الأستاذ أدرى بعمله منا …

فقاطعه الفتى قائلًا: لا … لا … أبدًا.

فنظر إليه صديقي دهشًا: ماذا تعني؟

فصاح الشاب في حماسة: إن أعمال الأستاذ خالدة جميعًا.

فلم أستطع كتمان ضحكي وقلت من فوري: أقسم أن الأستاذ الذي تتحدثون عنه لم يكتب سطرًا خالدًا.

فنهض الشاب على قدميه منفعلًا وقال بصوت متهدج: إني لا أسمح لك ... إني لا أسمح ...

فأسرع صاحبي الأديب وهمس في أذني: الزم الصمت. إني ألمح الشر في عينيه. وليس بمستبعَد أن يهجم عليك ويشبعك ضربًا.

فابتسمت وقلت للشاب في هدوء ورفق: سنتفق على كل حال ذات يوم. وربما في يوم قريب. وسترى بعينيك أني أنا الذي كنت على حق.

فهدأ الفتى قليلًا، ثم نظر إليَّ وقال في نبرة الأسف: لماذا تريد أن تهدم عملك؟

– لأنه لا يساوي الآن شيئًا. لقد قام بمهمته وانتهى الأمر. إن الفن طويل والعمر قصير، وإن هذا الهراء الذي نكتبه ليس إلا محطات صغيرة نجتازها أثناء السفر في طريق الفن، لا ينبغي أن نقف عندها ولا أن نرجع البصر إليها. إن ما يهمني الآن هو المحطة التي بلغتها اليوم والمحطة التي أريد أن أبلغها غدًا. إني في كل محطة يخيل إليَّ أني في مبدأ الطريق.

– إنه لتواضع.

– لا. إنه ليس كذلك. ينبغي أن تكون معي في هذا السفر الطويل حتى تدرك أن «أهل الكهف» شيء قد مات ودُفن منذ أعوام.

– إنها لم تمُت.

– الكلام معك أيها الشاب لا فائدة منه.

– معذرة يا أستاذ. إني لن أصدق أن «بريسكا» ميتة الآن. مهما تقل ومهما تفعل، إني أسمع كلامها وأعيش معها، وأكاد أراها الآن. إن ملامحها وتقاطيع وجهها وقوامها الرشيق وخصرها النحيل ... كل هذا حيٌّ في رأسي وقلبي، كل هذا مصور في مخيلتي تصويرًا لا تمحوه كلماتك التي قلتها اليوم ولا أضعافها. إني كنت قد جئت لأحدثك حديثًا طويلًا عن «بريسكا» وأستزيد من خبرها ولكن ... أرجو أن تأذن لي الآن في الانصراف.

ومدَّ لي يده فجأة وودعني في صمت وذهب سريعًا وأنا أنظر إليه حتى اختفى وحال بيني وبينه الباب. وأطرقت لحظة ثم رفعت رأسي ونظرت إلى صاحبي الأديب فإذا هو كذلك مطرق مفكر. وأخيرًا التفت إليَّ وقال: ما كان ينبغي لك أن تقول كل هذا الكلام لهذا الشاب المسكين.

– أوَكان ينبغي أن أتركه في وهمه مخدوعًا في خلود كاذب؟

– ليس من حقك أن تصدر على نفسك أحكامًا أمام الناس. إنك ما دمتَ قد استطعت أن تخلق للناس أوهامًا جميلة وأحلامًا حلوة يعيشون في جوِّها؛ فإن من الإثم أن تخرجهم منها بكلمة. ومع ذلك فكن على ثقة بأنهم لن يصدِّقوا كلامك، وأن حرصهم على هذه الأوهام التي أَلِفوها لأشدُّ من حرصهم عليك أنت وعلى حقيقتك التي تزعمها. أترى لو بُعث نبي من الأنبياء اليوم وجاء يهدم دينه الذي أتى به قديمًا، ماذا يكون شأنه؟ أيصدقه الناس بسهولة أم تراهم يرجمونه بالحجارة ويرمونه بالكذب والجنون؟! إن تمسُّك الناس بالوهم الذي اعتادوه لأقوى من كل حقيقة.

– يا للعجب! أليس لي الحق إذن أن أهدم نفسي. إنه الجنون أن أتصور أن ليس في استطاعتي أن أهدم نفسي.

– نعم، وإنها لنعمة حُرِمها المؤلف فيما حُرم من أشياء. إن حقوقه على نفسه ليست محفوظة له كحقوق الطبع والتأليف!

مع الأميرة الغضبى!

الأميرة الغضبى هي «بريسكا» بطلة قصتي «أهل الكهف». وهي مثلي تحب الكتب، هذه الحسناء النضِرة كالزهرة. وكانت تعيش ربيعها الباسم مع مؤدِّبها «غالياس»، هذا الشيخ الفاني ذو اللحية البيضاء. إلى أن وضع القدَر أمامها: الفتى الجميل «مشلينيا». فما كاد يتفتح قلب هذه الزهرة للحب، حتى رأت «القدَر» قد حال بينها وبين حبيبها، وسطَّر في اللوح أمر موته. وقدَر «بريسكا» هو «أنا» ولا فخر، أنا الذي في يدي سعادتها وشقاؤها، أسطِّرهما بكلمة من قلمي! لقد تذكَّرت هذا، ذات ليلة، فحدثتني نفسي أن أهبط إلى عالم مخلوقاتي، فأرى الراضي منهم والساخط، وأطوف بمشاعرهم نحوي ونحو الأشياء كما كان يفعل آلهة الأساطير!

ذهبتُ إلى الأميرة «بريسكا»؛ فوجدتُها تتألق في حُسنها المعهود. ولكنه حُسن عليه غيمة حزن. فما أن رأتني وعرفَتني، حتى هبَّت إليَّ صائحة: إني أبغضكَ! ... من أعماق قلبي.

– أستغفر الله! لماذا يا سيدتي؟ ما جنايتي؟!

– وأحتقركَ كما أحتقر «غالياس».

– لاحظي يا سيدتي قبل كل شيء أن ليست لي لحية غالياس!

– قل لي أنت قبل كل شيء؛ ماذا عليك لو أنك أبقيت لي «مشلينيا»؟ ... لو أن قلمك تمهَّل لحظة صغيرة ولم يقصِف تلك الحياة قبل أن يحضر غالياس وعاء اللبن؟! ماذا كسبت أنت من موت مشلينيا قبل الأوان؟ لحظة واحدة صغيرة كانت كافية لإنقاذ الفتى ... لكنك ضننت بها أيها القاسي الظلوم!

– لست قاسيًا يا سيدتي ولا ظلومًا. ولو كنت أملك أمر بقاء مشلينيا دقيقة واحدة لأبقيته لك عن طيب خاطر.

– لو كنت تمتلك؟ مَن غيرك يملك؟!

– لا تُحمِّليني يا سيدتي هذه التبعة!

– جميل أن يتنصل خالق من تبعة خلقه كل هذا التنصل!

– آه! ما أظلم الإنسان! وما أحوج الخالقين إلى الرحمة والرثاء في هذا الوجود!

– نحن الظالمون وهم المظلومون! شيء بديع!

– إنكم تحمِّلونهم التبعات وترمونهم بالظلم وهُم بَراء من كل صفة من هذه الصفات. فلا ظلم ولا عدل، ولا قسوة ولا حنان، ولا غضب ولا رضا، تلك عواطف لا يعرفونها ولا يشعرون بها. ولو أصغَى إله لصوت آدمي لانحل الكون في طرفة عين، كما تنحل قصة «أهل الكهف» لو أني أصغيت إلى شخص واحد من أشخاصها! فأنتِ تريدين أن أؤخر موت «مشلينيا» دقيقة، ولا تعلمين أن هذه الدقيقة الواحدة كانت كفيلة أن تغير وجه القصة، وتقلب مصير الأشخاص وتلقي عناصر الفوضى في العمل كله. كلا يا سيدتي. إني لم أرِد موت مشلينيا ولم أرِد بقاءه، ولم أحبَّ ولم أكره، ولم أظلم ولم أعدل. إن الخالق لا يمكن أن يخضع لغير قانون واحد: «التناسق».

– هذا كلام تبرر به قسوتك.

– أنتِ يا سيدتي لا تعرفين ما مهنة الخالق! ثقي بأن كلمة «قسوة» لا معنى لها في تلك المهنة.

– أنتَ كائن لا يمكن أن يفهمني، ولا يمكن أن يفهم الحب.

– لا أفهمك، هذا صحيح، أما إني لا أفهم الحب فهذا غير صحيح.

–هل أنتَ تفهم الحب؟

– قليلًا.

– هل أحببتَ في حياتك؟

– أيتها الأميرة! لا أسمح لك بالكلام في شئوني الخاصة.

– معذرة! إنما أردتُ أن أعرف كيف فهمك للحب؟

– ماذا تريدين أن تعرفي؟ أحُب الخالق وهو روح التناسق؟ أم حب المخلوق؟

– بل حب المخلوق ... حب القلب ... الحب ما أريد. آه ... صدقت ما دمتَ أنت خالقًا وأنا مخلوقتك فإن بيننا تلك الهوة ... فأنت لا تنظر إليَّ بعين خاصة، ولا تعرفني معرفة خاصة، ولا تتصل بي اتصالًا مباشرًا. إنما تنظر إليَّ كعنصر من عناصر الكل المتَّسق. تنظر إليَّ بعين ذلك القانون الذي تحكي عنه، وينبغي أن تكون مخلوقًا مثلي وعنصرًا أو جزءًا

مثلي حتى يكون بيننا ذلك الارتباط الخاص وذلك الالتفات الخاص. فهبكَ كذلك وهبني أحببتكَ فهل تحبني؟

– يا لك من ذكية ماهرة!

– أجِب. إذا أحببتُك؟!

– و«مشلينيا»؟

– دعنا الآن من مشلينيا.

– إذا أحببتِني؟ أنا؟

– نعم، أنتَ.

– إني أخشى هذا الحب.

– لماذا؟

– لأنكِ لن تحبِّيني.

– من أين لك العلم؟

– هل رأيتِني؟ إني لا أشبه مشلينيا في شيء، فليست لي فتوَّته ولا جماله ولا قوامه ولا ذراعاه ولا شفتاه ...

– ولا قلبه؟

– (أتَردد قبل أن أجيب) قد يكون لي قلبه، لكن ثقي بأني لو شقيت في الحب فإني لا أذهب إلى الكهف ولا أموت جوعًا. أو لا ... ليس عندي كهف أموت فيه. وإن وجدنا الكهف، فلسنا واجدين الشجاعة والصبر عن أكل الشواء والدجاج يومًا واحدًا.

– إذن ليس لك حتى قلبه!

– نعم، وا أسفاه!

– إذن ماذا يصنع مثلك لو شقي في الحب؟

– يذهب إلى كهف من كهوف النبيذ في «مونمارتر» ويؤلف قصصًا تمثيلية.

– مرحى! مرحى!

– لا تغضبي أيتها العزيزة «بريسكا».

– أهذا فهمك للحب؟

– ماذا تريدين؟ إنا لسنا قديسِين!

– نعم، لستم سوى خالقين! آه ... كنت أحسبكم خيرًا من هذا!

– كذلك قال «غالياس» يومًا فيما أذكر عن القديسِين الثلاثة إذ خالطهم وحادثهم. ألا تذكرين؟

– كنت أظنك على الأقل خيرًا من غالياس المسكين فهمًا للحب!

– يشقُّ عليَّ أن يخيب ظنك فيَّ يا عزيزتي!

– عزيزتك! كلا. لست أسمح لك! إنك تخاطبني كما لو كنت تعرفني من قبل، أو كما لو كنت لي بعلًا!

– حقيقة أيتها الأميرة ليس لي هذا الشرف!

– تستطيع أن تنصرف يا هذا!

– أنصرف إلى أين أيتها الأميرة؟

– أتسألني؟ إلى حيث كنت ... إلى سمائك.

– أين هي هذه السماء؟ في قهوة «سيرانو»؟ أو في قهوة «جروبي»؟ ما أكثر أوهامكم أيتها المخلوقات!

– نعم ما أكثر أوهامنا ... وتخيلاتنا ... وخيبة آمالنا!

– ذلك أنكم تريدون أن تُخضِعوا كل شيء لخيالكم أنتم.

– صدقت! إننا نتمثل القديسِين والآلهة كما تصورها لنا عقولنا.

– ثقي بأنَّ لو كشف المجهول يومًا لأعين البشر لصاحوا كلهم بكلمتك التي لفظتها الساعة: «كنا نحسبه خيرًا من هذا!»

– ربما ...

– ذلك أنهم سيرون المجهول شيئًا لا علاقة له بعقلهم، ولا بخيالهم، ولا بمنطقهم، ولا بعواطفهم، ولا ببشريتهم.

– إنا مخلوقات. ماذا تريد من مخلوقات؟ إنا لا نستطيع أن نخرج من أنفسنا لنفهم ونرى شيئًا غير أنفسنا.

– ومع ذلك فإن لهذه المخلوقات كنزًا لا يوجد عند الآلهة.

– القلب؟

– نعم.

– إني أومن بما تقول، فها أنت ذا خالق من نوع تافه ... وليس لك القلب الذي لـ «مشلينيا»!

– أعترف أني أقل شأنًا من حبيبك.

– ومع ذلك فقد اجترأَت يدك على إطفاء حياته الجميلة.

– عدنا إلى الاتهام.
– إني أبغضك ... أمقتك ... أبغضك من أعماق قلبي.
– سبحان الله! أقسم أنَّ لا فائدة من مناقشة امرأة تحب.

أمام حوض المرمر!

في ليلة من ليالي وحدتي الطويلة، تاقت نفسي إلى أنيس. فذكرت الملكة «شهرزاد». وهي أيضًا من مخلوقاتي الجميلات. فقلت: لا يؤنسني الليلة غيرها. فهبطت إلى قصرها. كما هبطت إلى الأميرة «بريسكا» من قبل. نعم! وهل يؤنِس مثلي إلا الملكات والأميرات؟ إن عالمي الزاخر باللآلئ والحلي والتيجان هو دائمًا في خدمتي! هذا كل عزاء مثلي من «الخالقين» المتدثرين في سحب «عزلتهم» الباردة!

ذهبت إلى «شهرزاد»، فوجدتها متكئة على الوسائد تنظر باسمة في حوض من المرمر، قد انعكست أشعة عينَيها الذهبيتَين على مائه، فاتخذت صفحته الهادئة لونًا غريبًا ... وجلس بين يديها الوزير الجميل «قمر» في إطراقه وحيائه ونفسه الزاخرة بألوان العواطف الجميلة المكتومة. وكان بينهما هذا الحديث:

شهرزاد (في مكر): أراك يا قمر تسرف في إطرائي وتبخس قدر صديقك شهريار.

الوزير: لم أبخس قدره.

شهرزاد (في مكر): يخيَّل إليَّ أنك نسيت ما بينكما من ودٍّ عجيب.

الوزير (في حدَّة): لم أنسَ شيئًا.

شهرزاد (في خبث): بلى!

الوزير (في حدَّة عمياء): إني لم أنسَ شيئًا. إنما أبيِّن لك لماذا أنت تحبينه أسمى الحب. فلا تزعمي لي غير هذا مرة أخرى. إني لست أُخدع. لست أُخدع. لست أُخدع!

شهرزاد (هادئة): قمر؟ ماذا دهاك؟

الوزير (يثوب إلى رشده): مولاتي مغفرة. إني ...

شهرزاد: إنك أحيانًا لا تملك نفسك.
الوزير: إني ... أردت أن أقول إنك غيرتِه، وإنه انقلب إنسانًا جديدًا منذ عرَفك.
شهرزاد: إنه لم يعرفني.

(وهنا يسمعان طرقًا شديدًا فقد طرقتُ أنا عليهما الباب.)

الوزير (يرهف السمع)**:** هذا هو.
شهرزاد: إن شهريار يحمل دائمًا مفتاحه ولا يدخل القصر إلا من سردابه.
الوزير: من الطارق إذن؟
شهرزاد: اذهب وجِئني بالخبر

(الوزير يخرج مسرعًا.)

شهرزاد (كالمخاطبة لنفسها)**:** مسكين أنت يا قمر!

(الوزير يعود على عجَل.)

قمر: مولاتي! أتدرين من الطارق؟ رجل عجيب الزي، يقول إنه المؤلف، ويلتمس المثول بين يديك.
شهرزاد (في عجب)**:** المؤلف؟ أي مؤلف؟
قمر: لم أفهم مراده. إنما هذا ما قاله لي
شهرزاد: أدخِله لنتبيَّن أمره.
قمر: أفي مثل هذه الساعة من الليل؟
شهرزاد: وماذا يضير؟ إنكَ معي.
قمر: نعم سألبث معكِ.

(يخرج قمر في الحال.)

شهرزاد (كالمخاطبة لنفسها)**:** المؤلف؟ أتُراه أحد السحرة قد أرسل في طلبه شهريار؟

وقادني قمر إلى شهرزاد، فدخلتُ أتأمل المكان وأنظر إلى عجائب القصر. ورأَتني شهرزاد وتأملَت زِيي قليلًا، ولكن حسنها وهيبتها لهما عين السحر في نفوس الخالقين والمخلوقين فوقفتُ أقول مأخوذًا: مولاتي ...

– ماذا بك؟

– أأنا بين يدي شهرزاد؟

فهمس في أذني الوزير الجميل: نعم أنت في حضرة الملكة العظيمة.

فقلتُ كالمخاطب لنفسي: نعم، لا يمكن لهذا الجمال أن يكون لغيرها.

ورأت الملكة الجميلة ما بي فقالت لي: بم تهمس كمَن به مس؟

– مغفرة أيتها الملكة، إني ...

– لماذا تنظر إليَّ هكذا؟

– هذا الجمال ...

فالتفتَت شهرزاد إلى وزيرها قائلة: أرأيت يا قمر؟ إنك قد جئتني آخر الليل بمعجب مفتون.

فنظر إليَّ قمر قائلًا في شيء من الحدَّة: ماذا جئتَ تصنع هنا أيها الرجل؟

فقلت هامسًا: لست أدري.

ثم عدت إلى تأمل شهرزاد. فقالت: أرجو منك أن لا تطيل النظر إليَّ هكذا.

فقلت: مولاتي! لا أستطيع.

فقالت وهي تبحث بعينيها الفاتنتين: أين الجلاد؟

فقلت: نعم، خير لك أن تأمري بي فتُطاح رأسي من أن تطلبي إليَّ أن لا أعجب بك.

– أتراني حقًّا جميلة؟

– نعم.

– إن لي جسدًا جميلًا! أليس لي جسد جميل؟

– ليس الجسد وحده.

– اقترب.

– كلا.

– لماذا؟

فأشرت إلى حوض المرمر: هذا الحوض ...

– أيُخيفكَ هذا الحوض؟

– أخشى أن تزل قدمي فأسقط وأنا لا أحسن السباحة.

– إنه قليل الغور.

– لا شيء عندك قليل الغور.

فتفرَّست شهرزاد في وجهي وقالت: عجبًا إنك تتكلم كما يتكلم شهريار! من أنت؟
– خادمك توفيق الحكيم.
– أتعني أنك صاحب توفيق أم أنك صاحب حكمة؟
– لا هذا ولا ذاك، ولكنه اسم من الأسماء.
– وما صناعتك؟
– أؤلف القصص.
– مثلي؟
– لم أبلغ شأوك، وليس لي ذكاؤك ولا خيالك.
– إنك تسرف في إطرائي وتبخس قدر نفسك.
– قدر نفسي؟ وما أدراك به؟ وهل عرفت لي قصصًا على الأقل أيتها الملكة؟
– كلا. ماذا صنعتَ أنتَ من القصص؟
– قصة «شهرزاد».
فظهر العجب على وجه الملكة:
– أنا؟
– نعم أنت.
– متى صنعتها؟
– ليس يعني الزمن الذي صنعت فيه.
– أصنعتها في الماضي؟
– بل في المستقبل.
– فهمت. هذا الزي العجيب …
– نعم. إني أهبط إليك الساعة من المستقبل الذي أعيش فيه لألقاك في الماضي الذي فيه الآن تعيشين، كما يهبط الطائر من الشمال إلى الجنوب في غابة متسعة الأرجاء.
– يا للعجب! كلامك هذا يذكرني بشهريار.
– أترين هذا؟
– لكنك أهدأُ نفسًا منه.
– نعم، الآن.
ونظرت شهرزاد إليَّ مليًّا: إني أعجب كيف أن القدَر لم يجمع بيننا قبل الآن!
– لقد جمع بيننا دائمًا.
– أين؟

فأشرتُ إلى قلبي وقلت: هنا.

فقالت في عجب وهي تشير إلى قلبي: هنا؟

– نعم. ومن هنا خرجتِ أنتِ إلى الوجود فما أنتِ إلا صنع النار والنور الكائنَين هنا.

وأشرت مرة أخرى إلى قلبي. فقالت باسمة: هذا جميل.

– أرأيتِ من أي مادة أنت مصنوعة يا مخلوقتي العزيزة؟

وتململ قمر، فقال مشيرًا إليَّ في عنف:

– من هذا الرجل؟

فقلتُ في الحال: صه أيها الوزير. فكِّر في شأنك أنت، ودعني فيما أنا فيه. فما جئتُ الليلة إلا من أجل شهرزاد.

فقالت شهرزاد في ابتسامة عذبة: جئتَ من أجلي؟

– نعم.

– وماذا تريد مني؟

– أريد أن أعيش إلى جانبك.

وهنا ثار غضب قمر فصاح بي: أيها الرجل! من أنت أيها الرجل؟

فقلت له هادئًا: أنا كائن أشقى منك حالًا.

فقالت شهرزاد: لماذا؟

– لأني أشعر ببرد الوحدة يكتنفني في تلك السماء ذات السحب.

فقالت باسمة: ويل للخالقين!

– صدقتِ، أجل يا شهرزاد لو لم يعِش الخالق في مخلوقاته لقتله برد الوحدة.

– تريد إذن أن تهبط إلى الأرض؟

– لقد قلتِها أنتِ مرة يا شهرزاد: لا شيء غير الأرض.

– أين شهريار يسمع منك؟ وهو الذي هجر الأرض يريد السماء؟

– لا تخشي عليه من بأس. سوف يعود إليك.

– متى؟

– يوم يعلم أن السماء في الأرض.

– يا هذا ... أريد منك شيئًا.

– ماذا؟

– أمنحُك قُبلة!

– تمنحينني قُبلة؟

– نعم.

– وهبتُها قمرًا.

فنظر قمر إلى شهرزاد مستنكرًا قولي وصاح: مولاتي!

فقلتُ له: خذها أيها الأبله. من ذا الذي يرفض قُبلةً من شهرزاد؟

فلم يحتمل قمر الرقيق أكثر من ذلك؛ فخرج سريعًا.

فقلت: هرب الأحمق.

وعندئذ نظرت إليَّ شهرزاد مليًّا، وقالت: عرَفتُك أخيرًا.

– عرفتِني؟ من أنا؟

– أأنتَ هو؟ أم أنكَ تعيش فيه؟

– من هو؟

– شهريار!

فقلت مضطربًا: لستُ أدري ... هذا سؤال لا ينبغي أن يوضع، ولا ينبغي أن يلقَى عليَّ.

فقالت: إذن ارتفع. فما أنت إلا شبح من الأشباح.

– شبحُ من؟

– شبح شهريار!

– لا تقولي هذا. إنما هو الشبح وأنا الحقيقة.

فقالت:

– أمام الأبد هو الحقيقة التي ستبقى وهو خالقك وهو مخلدك، وما أنت إلا خيال سوف تتبعه صاغرًا على مرِّ الأيام. وإن ذكِر اسمك على الدهر فإنما يُذكَر خلف اسمه. إنك تزعم الآن أنك صانعنا وخالقنا أمام ذلك الزمن المحدود، وإنما نحن في الحقيقة صانعوك وخالقوك في الغد أمام الخلود.

– ويلٌ لي.

– ماذا بكَ؟

– أأنا عندكِ شبح؟ تلك هي السخرية الكبرى! في وحدتي ينخر في نفسي الشك. فإذا هبطتُ بينكم ألتمس اليقين، علمتُ أني شبح لا حقيقة، وأني صنعكم أنتم أمام الدهور.

فقالت: كل شيء يصنع كل شيء.

– نعم.

– ليس هناك إلا حقيقة واحدة.
– ما هي؟
– إننا جميعًا لسنا حقيقة.
– وأنا معكم؟
– وأنتَ معنا لا فرق بينك وبيننا.
فتأملتُ قولها لحظة ثم قلت: صدقت! ولا أمل لي مع ذلك في أن أعيش إلى جانبك؟
فقالت: اليوم كلَّا.
– ومتى إذن؟
فقالت: في الغد، يوم تصبح من مادتنا، لو أن لنا اليوم مادةً.
فأطرقتُ قائلًا: فهمتُ. وداعًا يا شهرزاد.
– إلى الملتقى!

بين الحلم والحقيقة

(أحدهما شبح الآخر.)

هو: صانع تماثيل، قد جلس أمام تمثال صنعه لأميرة فرعونية.
هي: زوجته، جميلة تشبه التمثال.
هو (يرنو إلى التمثال)**:** نفريت! ما أجملك! عيناك في صمتهما العجيب تابوتان لامعان، يرقد في أحدهما الحب، وفي الآخر ... الحب.
هي (لزوجها الفنان)**:** ألن تكفَّ عن مخاطبة هذا التمثال الصخري؟
هو: نفريت ليست من الصخر.
هي: إنك جننتَ.
هو: إني أحب.
هي: تحب تمثالًا من الصخر؟
هو: إنها ليست من الصخر، أللصخر حرارة وأنفاس؟
هي: تلك حرارتك وأنفاسك.
هو: نفريت! ألمس جسمك الحارَّ فيرتجف جسمي الملتهب.
هي: إنما جسمك يلتهب من الحمَّى.
هو: ما أجملك يا نفريت! رأسكِ ذو الشعر الأسود شمس من الأبنوس، رأسك اللامع كرة ساحر تبهر بصري وتثقل رأسي. إنني أشعر الآن بدوار.
هي: لا تُطل النظر إلى هذا الصخر اللامع (ترده عن التمثال).
هو: دعيني يا امرأة!

هي: كلَّا. لن أدعكَ هذه المرة. لقد ضقت ذرعًا بهذا التمثال ... لا تحدق فيه ببصرك ... إنك تحلم ... أقسم أنك في حُلم.

هو: دعيني يا امرأة!

هي: أصغِ إليَّ لحظة، أتوسل إليك أن تصغي إليَّ.

هو: نفريت. ما أجملك يا نفريت! صوتك الرقيق فراش جميل الألوان يطير في لطفٍ ورقةٍ من جوف زنبقة حمراء!

هي: وصوتي أنا، ألا تسمعه؟

هو: نفريت!

هي: إنما أنا التي تحبكَ ... ألا تسمع صوتي أنا؟ ألم يعد رقيقًا كأجنحة فراش جميل الألوان، وشعري ... ألم يعد شمسًا من الأبنوس. لِمَ تنادي نفريت بما كنت تناديني به من قبل؟

هو: نفريت! لن يُصنع مثلك بغير أن تفنى عبقرية ألف إله. ولن يَخلُق نظيرك إلهٌ دون أن يُجن!

هي: أيها المجنون ... لا سواي في الوجود؟ ... انظر إليَّ أنا ... لِمَ تنعت نفريت بما كنت تنعتني به من صفات؟

هو: بي ظمأٌ إليك يا نفريت!

هي: وأنا ... أما بكَ ظمأ إليَّ؟ لماذا لا تأخذ رأسي بين يديكَ كما كنت تفعل، لترتشف من فمي عصير اللآلئ؟

هو: قبلات نفريت ... عسل من نار، بل خمر من عصير اللآلئ في كأس من نار.

هي: ويحك! تلك صفاتي ... أسمائي التي كنت تُطلقها عليَّ أنا وحدي ... أنا جمالكَ الوحيد، أنا عندكَ منبع الحسن الخالد.

هو: من أنتِ؟

هي: من أنا؟! ألا تعرفني؟ إني أبغضكَ

هو: إنها لا تبغضني، إنها تحبني، إنها لا تحب «أسرتسن» ... آه ... الغيرة.

هي: الغيرة؟

هو: جعران مخيف يسير فوق شغاف قلب.

هي (تضحك): أنا؟ أغار من تمثال؟ أنا أغار من جمال كاذب!

هو: أنا الذي يغار من زوجها «أسرتسن». إنه إلى جانبها أبدًا ... فوق عرش واحد ... تحوطهما هالة من أنفاس الآلهة ... وتحفهما العبيد بمراوح النخيل.

هي: أنتَ في حُلم ... أقسم أنكَ في حُلم.
هو: بل في يقظة هنيئة ... إنها معي أبدًا، إنها ترنو إليَّ بعينَين من ذهب.
هي: أيها النائم ... وعيناي أنا ... ألا تراهما؟
هو: من أنتِ؟
هي: انظر إلى عيني.
هو: عيناكِ من نحاس
هي: إنكَ لم تبصرهما، أنتَ لا تريد أن تبصرهما، آه. لِم صُنع هذا التمثال؟
هو: نفريت ... رأسك اللامع بين يدي كوكب أسود بين يدي إله، كوكب لا نهار له.
هي: ورأسي أنا أيها المجنون، ألا تراه؟
هو: من أنتِ؟
هي: انظر إلى شعري الأسود اللامع.
هو: رأسكِ ليل له نهار.
هي: إني أمقتكَ مقتًا شديدًا، وأبغضكَ أكثر مما تبغضني، وأمقت من تحب، وأبغض هذا التمثال.
هو: نفريت! أنتِ لي وحدي، أنتِ كوكبي، فلنسبح سويًّا في بحار الفضاء تاركَين خلفنا أسرتسن ... ولنبحث عن جزيرة الهناء الدائم ... تلك الجزيرة التي خلقَتها الآلهة لأنفسها ثم فقدَتها ... هلمي بنا نبحث عنها معًا فربما حظنا أوفر من حظ الآلهة.
هي: أقسم أنك في حُلم، لكني سأوقظكَ.
هو: نفريت ... جزيرة الهناء الدائم ليست في محيطات الفضاء كما تزعم الآلهة ... عبثًا تبحث عنها الآلهة في محيطات الأثير ... جزيرة الهناء الدائم المفقودة لا يعرف مقرها غيري ... ميلي بأذنكِ نحوي كي أهمس لكِ بمكانها. أتدرين أين جزيرة الهناء الدائم؟ هي ليست في محيطات الفضاء، هي في محيط ... عينيكِ.
هي: محيط عينيها ... سأجعلكَ تفيق من تأثير عينيها. انظر، ماذا ترى بيدي؟

(تأتي بمطرقة من الحديد.)

هو: لا تقرَبي نفريت.
هي (تحطم رأس التمثال): انظر هذا الكوكب الأسود تمحوه المطرقة!
هو: آه.
هي: وهذا الجسد الجميل الحار يتفتت قطعًا باردة تحت ضربات المطرقة.

هو: آه.

هي: والآن ... انهض واجمع أجزاء نفريت الخالدة!

هو (يفيق): أين أنا؟ ... أحس دوارًا، أين الرأس اللامع؟

هي: ها هي ذي تحت قدمَي نفريت ورأسها اللامع ... وعيناها اللامعتان اللتان أنامتَاك طويلًا ... الآن أنتَ لي وحدي.

هو: أين أنا؟ وأين كنتُ؟

هي: لست أدري أين كنتَ! إنما أنتَ الآن هنا معي وقد عدتَ إليَّ.

هو (ينظر إليها مليًّا): أيتها العزيزة، أنا هنا معكِ! اجلسي إلى جانبي.

هي: لماذا تطيل إليَّ النظر هكذا؟

هو: كأن رأسك شمس سوداء.

هي: بل ليل له نهار.

هو: كوكب من الأبنوس ... وعيناك، كأن عيناك من ذهب.

هي: عيناي من نحاس.

هو: عيناك بحيرتان صافيتان يسبح في إحداهما الحب وفي الأخرى ... الحب!

هي: ألي هذا القول أم لنفريت؟

هو: مَن نفريت؟

هي: ألا تعرفها؟

هو: لا أعرف سواكِ يا عزيزتي في الوجود. ما أجملكِ! كم أودُّ لو تناولتُ رأسكِ الأبنوسي بين يدي وأرشف من فمكِ رحيقًا في لون الورد. بل خمرًا من عصير اللآلئ في كأس من ورد.

هي: أرجو منكَ ألا تخاطبني بما كنتَ تخاطب به نفريت.

هو: من نفريت؟

هي: ألم ترَها؟

هو: كلا ... لم أرَ غيرك. إني أريد أن أبحث في محيط عينيكِ عن الهناء الدائم.

هي: دعني! إنك ترى فيَّ الآن ما كنتَ ترى في الأخرى.

هو: مَن هي الأخرى؟! ليس في الحياة غيركِ أنتِ؛ لأن الطبيعة لن تخلق سواكِ. وأي إله يصنع مثيلكِ دون أن يتهم بالتزييف!

هي: آه! هذا ما قلته لها أيضًا!

هو: لمن؟

هي: أترى …

هو: ماذا؟

هي: تُرى أكنت أنا هي؟ أم شبحها؟

هو: من هي؟

هي: أشربت شيئًا؟

هو: كلَّا.

هي: أتذكر أسطورة «السكير وزوجته»؟ لقد كان يسرق حلى زوجته؛ كي يسبغه على خليلته، ثم يسرق حلى خليلته كي يخلعه على زوجته.

هو: ومن خليلته؟

هي: زوجته.

عدو إبليس

(«عزرائيل» وقد انصرف عن دار النبي «محمد» بعد وفاته يرى «إبليس» مقبلًا فرحًا مبتهجًا.)

إبليس: هل قبضت روحه؟

عزرائيل: وما شأنك وهذا، أخزاك الله؟

إبليس: نعم، نعم، لقد مات. أليس هذا صوت ابنته فاطمة تبكي وتصيح: «أبتاه، أبتاه. أجاب ربًّا دعاه، يا أبتاه! جنة الفردوس مأواه! يا أبتاه إلى جبريل ننعاه!»

عزرائيل: وما يعنيك من هذا الأمر؟

إبليس: أوليس هذا أيضًا صوت زوجته عائشة في بكاء وشهيق: «وا حرَّ قلباه! وا مصيبتاه! الآن قد انقطع عنا خبر السماء!»

عزرائيل: اغرب عن هذا المكان!

إبليس: ثم ها هو ذا صوت نسائه كلهن يبكين: «وا ثكلاه! وا ثكلاه!»

عزرائيل: اغرب عن هذا المكان!

إبليس: ما أجمل هذا النهار! ... إن نفسي لتكاد تتفجر شعرًا وغناءً. أصغِ إلى هذه الأغنية:

ذهب عدوي إلى الفناء
اليوم عيدي فإلى الغناء

عزرائيل: صه قبَّحك الله وقبَّح صوتك!

إبليس: صوتي منذ اليوم يستطيع أن ينطلق حرًّا في أرجاء الأرض. صوتي منذ الآن يستطيع أن ينفذ إلى تلك القلوب التي كانت تميل عني لتتلقى أخبار السماء. نعم الآن قد انقطع عن الأرض خبر السماء. لقد عاد إليَّ مُلك الأرض من جديد ... وا فرحتاه! وا فرحتاه!

عزرائيل: خسئت! إن نور السماء قد نفذ إلى قلوب الناس، فهيهات بعد اليوم أن يُصغوا إلى صوتك!

إبليس: إنك لا تعرف الناس مثلما أعرفهم. إني أعرف كيف أمر بأناملي مرًّا رقيقًا على أوتار قلوبهم، فيذهَلون، وأغني بصوتي هذا غناءً شجيًّا فيطرَبون ... إنك لا تعرف ما هي الأغاني التي أغنيها لهم. إني أغنيهم أغاني الأرض لا أغاني السماء! إن السماء تنير قلوبهم حقيقة ... لكن لأجلٍ قريب. لا تنسَ أنهم خلقوا من طين الأرض. لا شيء يهزُّ كيانهم غير أغاني الأرض!

عزرائيل: إنهم من الأرض ولكن أعينهم تتطلع إلى السماء.

إبليس: نعم، عندما يشير لهم إليها النبي بأصبعه، فإذا ولَّى ... عادت رءوسهم تنخفض نحو الأرض. إنهم كالسنبلة التي لا يرفعها غير الأصبع، فإذا تُركَت سقطَت.

عزرائيل (كالمخاطب لنفسه): عجبًا! ولماذا إذن رضي الله أن يقبض نبيه؟ إن لله حكمة، أجل، أجل. أنسيت أيها الخاسر أن النبي إنما يأتي للتبليغ ويمضي؟ إنه جاء بالدين. إنه يذهب ولكن الدين باقٍ. الدين هو الأصبع الدائمة التي لا تنفك تقيم المعوَّج. لا تفرح إذن كثيرًا بموت النبي. ما مات غير الجسد الزائل. أما المبادئ والتعاليم فهي قائمة في وجه ريحك العاتية دائمًا ... ما الرسول في الحقيقة غير الرسالة ... والرسالة لا تموت

إبليس: نعم، نعم.

عزرائيل: ما بالك وجَمتَ! إن على وجهك الآن لغبرة تزيده قُبحًا على قُبحه.

إبليس: الرسالة والدين والتعاليم ... هذا صحيح ... ولكن ... تلك أشياء لم تُخِفني قط ... فقد استطعت فيما مضى أن أنزع عنها بعض قوتها ... إن المسيح قد بشر بالمثل الأعلى وفتح قلوب الناس لنور السماء. وذهب وقد ترك في الأرض قديسِين وخلفاء ساروا على سنته في نبذ متَع الأرض، والانقطاع مترهبِين في الصوامع والبِيَع والصحاري ورءوس الجبال يتأمَّلون وجه الله وحده، ناسِين أو متناسِين هذه الأرض التي من عناصرها صنعت أجسامهم ... هنا تراءيتُ لهم ولمن تبعهم في صور مختلفة تذكرهم بما نسوه وتناسوه، وخاطبتُ أجسامهم بالمنطق الذي تفهمه، وحدَّثتُ عناصر تركيبهم باللغة التي تعرفها ...

فإذا أكثر الناس يصغون إليَّ في أمور حياتهم ومعاشهم ولا يذكرون تلك التعاليم والمبادئ السماوية إلا يوم يجدون في أوقاتهم فراغًا للتفكير في السماء. إني ذكي. إني لم أَرِد قط في حربي ضد المسيح أن أقتلع المسيحية من النفوس، ولكني أظهرت في لباقة ما فيها من علوٍّ شاهق لا يستطيع المخلوقون من تراب وطين أن يبلغوه ما داموا آدميين ... فليصغوا إذًا إلى أغاني الجسد وأناشيد التراب والطين ... وليطلب العلو من كان عنده فضل من فراغ ينفقه بعيدًا عن الأرض والحياة ... وبهذا أصبحت المسيحية الحق اليوم ترفًا روحيًّا لا يقتنيه غير خاصة الخاصة، أولئك الذين لم أستطع أن أخاطب فيهم منطق الأجساد والعناصر.

عزرائيل: لقد أدرك الله غرضك الأثيم فأرسل محمدًا بدين لا ينكر منطق الأجساد والعناصر ... دين لا يعرف الرهبنة ولا إنكار قوانين الأرض ... دين لا يكره أن يصغي أتباعه إلى أغاني السماء والأرض معًا ... ما وسائل حربك إذن ضد محمد، والإسلام؟

إبليس: حقًّا ... تلك هي المشكلة! لهذا كان ذلك النبي ألدَّ عدوٍّ لي!

عزرائيل: إنه خاتم الأنبياء لأنه ضيَّق عليك الخناق، وسدَّ كل ثغرة يمكن أن تنفذ منها سمومك ... فماذا أنت صانع؟

إبليس: دعني أفكِّر.

عزرائيل: فكِّر طول الأبد ... فلن تظفر.

إبليس: بل لقد فكَّرت وظفرت ... الأمر بسيط: يجب عليَّ أن أطمس خصائص هذا الدين ... إني خَبِرت الناس لطول لصوقي بهم وعشرتي لهم ... إن الناس يميلون دائمًا إلى التشبه والتشبيه ... هذه القرود الناطقة ... يصعب عليها التمييز والتفريق والنظر في فلسفة الأشياء غدًا عندما يوارى محمد في التراب ... ويصبح ذِكرًا وطيفًا كموسى والمسيح. لن يفرق الناس بين محمد وموسى والمسيح، بل ربما قبل أن يواروه في الحفرة ... انظر ... أليس هذا عمر بن الخطاب أحد خلفائه؟ أصغِ إليه ...

عزرائيل: إياك أن توسوس له بشيء.

إبليس: أصغِ إليه.

(عمر بن الخطاب يقوم في الناس صائحًا.)

عمر: لا أسمعن أحدًا يقول: إن محمدًا قد مات، ولكنه أرسل إليه كما أرسل إلى موسى، فلبث عن قومه أربعين ليلة. والله إني لأرجو أن تُقطَّع أيدي رجال وأرجلهم يزعمون أنه مات!

عزرائيل: عجبًا! ما هذا الذي يقول؟
إبليس: أرأيت؟ إنهم قد شبهوه بموسى ولم يهيلوا عليه التراب!
عزرائيل: كذبت! إنما هي وسوسة منك!
إبليس: صه! انظر! هذا أيضًا رجل من بين الناس يريد أن يقول شيئًا.

(ينهض أحد الناس صائحًا.)

أحد الناس: إن رسول الله قد رُفع كما رُفع عيسى وليرجعن!
عزرائيل: رباه! ماذا أسمع؟!
إبليس: أرأيت؟ إنهم قد شبَّهوه كذلك بعيسى ولما يدرجوه في الأثواب!
عزرائيل: لست أصدِّق ما أرى وأسمع.
إبليس: لقد قلت لك إني أعرَف منك بالبشر.
عزرائيل: اللهم نورك! كيف خفِي على هؤلاء أن دينهم لم يكن تكريرًا لما سبقه من أديان؟ ... اللهم إنك منزَّه عن اللغو والتكرار!
إبليس: ما أبهجَ هذا النهار! ألا تطربك أغنيتي:

ذهب عدوي إلى الفناء
اليوم عيدي فإلى الغناء

عزرائيل: آه، لو استطعت أن أبطش بك.
إبليس: اقبض روحي إن قدِرت.
عزرائيل: ليس لك رُوح يُقبَض.
إبليس: بل لي رُوح لا تستطيع قبضه يداك الصغيرتان!
عزرائيل: يداي حقًّا لا تستطيعان؛ ولكن يد رضيع تستطيع ... إن روحك ليُزهَق في اليوم ألوف المرات ... إن رُوحك لينطفئ في قلب كل مؤمن ومؤمنة، ومحسن ومحسنة وخيِّر وخيِّرة ... إن روحك مارد من دخان يستطيع طفل بكلمة طيبة أن يحبسه في قمقم من نحاس!
إبليس: ولكني لا أموت ولا أذهب إلى الفناء ... لأني سلطان الأرض ورُوح الأرض ... ولن أترك الأرض ما بقيَت دودة تسعى في الأرض.

عزرائيل: ابقَ ما شئت في الأرض، ولكنك لن تقوى على دحر أعدائك.

إبليس: عجبًا لك! أولَم ترَ كيف أني في لحظة استطعت أن أغير معنى الدين الذي قضى محمد حياته كلها في تجليته وإظهاره وتوضيحه؟ ألم يُذكِّر محمد قومه في كل وقت أنه بشر يوحى إليه ... وأنه يحيا ويموت كبقية الناس ... وأن دينه هو دين الحياة ... الذي يحلُّ للناس كل وسائل العيش الصالح على هذا الأرض؟ وما دام دينه دين الحياة والفطرة والمنطق البشري ... فلا ينبغي أن يؤلِّهه الناس كما ألَّهوا المسيح، ولا أن ينكروا إمكان موته كما فعلوا مع المسيح ... أليس هذا معنى دينه؟ فكيف إذَن بدَّل الناس الآن المعنى، وانقلبوا يسيرون نحو فكرة التأليه؟

عزرائيل: إنهم لم يغيروا شيئًا ... ولئن وقع في نفسك شيء من كلام عمر بن الخطاب، فهو ولا ريب قد قال ما قال خوفًا من الردة!

إبليس: ولماذا يخشى ارتداد الناس عن الدين بموت محمد ... إنهم إذن كانوا يعبدون محمدًا!

عزرائيل: اللهم ألقِ نورك في صدور الناس!

إبليس: هيهات! إن ما تسميه «وسوستي» قد استقر الساعة في صدور الناس.

عزرائيل: خسئت أيها الخاسر ... انظر ... انظر.

إبليس: ماذا؟ من هذا؟

عزرائيل: هذا أبو بكر يقوم في الناس ... أصغِ إليه.

(أبو بكر ينهض في الناس صائحًا.)

أبو بكر: أيها الناس ... أما بعد، فمن كان منكم يعبد محمدًا فإن محمدًا قد مات ... ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت!

عزرائيل: وا فرحتاه ... أسمعت؟

إبليس: ؟

عزرائيل: انظر أيضًا ... انظر ... هذا العباس يريد أن يقول شيئًا.

(العباس يقوم في الناس صائحًا.)

العباس: أيها الناس ... والله الذي لا اله إلا هو، لقد ذاق رسول الله الموت، وإنه ليأسن كما يأسن البشر ... فادفنوا صاحبكم ... إنه ما مات حتى ترك السبيل نهجًا

واضحًا ... أحلَّ الحلال وحرَّم الحرام ... ونكح وطلَّق وحارب وسالَم ... وما كان راعي غنم يتبع بها رءوس الجبال بأنصب ولا أدأب من رسول الله فيكم!

(عزرائيل يلتفت إلى إبليس صائحًا صيحة انتصار.)

عزرائيل: ماذا تقول الآن في هذا؟ اغرب الآن عن هذا المكان ... لقد ظهر الإسلام، وتألق رُوح هذا الدين!

فوق السحب

حضر إليَّ ذات صباح مندوب إحدى الصحف، وأخبرني أن مكاني محجوزٌ في الطيارة الذاهبة إلى الإسكندرية في اليوم الذي أختاره، والساعة التي أحددها فترددت ... ولكنه أسرع يقول لي: إن سفر الأستاذ بالطيارة له قيمته من الوجهة الصحفية!

فنظرت إلي بذهن شارد وقلت كالمخاطب لنفسي: وإذا سقطت الطيارة بالأستاذ؟!

فأسرع يقول دون أن يتبصَّر في قوله: يكون أحسن وأتمَّ، فهو كذلك خبر له قيمته من الوجهة الصحفية!

فأفقتُ في الحال: شيء جميل!

وتنبه الصحفي لزلة لسانه وارتبكَ واعتذر: غرضي يا أستاذ ...

– غرضك ظاهرٌ من أوله.

– من يعلم؟ ... ربما عدتَ إلينا بالسلامة.

– ربما؟!

قصدي أقول إنك إن شاء الله راجع بالسلامة منشرح الصدر غير نادم على المخاطرة، وما فاز باللذة إلا الجسور!

ومضى هذا الإبليس العصري يزين إليَّ لا الهبوط من السماء إلى الأرض، بل ترك الأرض والصعود إلى السماء! ويتحدث عن جمال الرحلة الجوية في ذاتها بغض النظر عن المقال المطلوب. وتمَّت الغواية وقبلت آخر الأمر، وانصرف عني الصحفي راضيًا ظافرًا في الحالين مقالتي أو حياتي!

وجلستُ أفكر قليلًا. لقد كان عليَّ أن أسافر حقيقة إلى الإسكندرية بعد يومين لحضور عقد زواج أحد الأصدقاء. وكان عليَّ أن أصاحِب «العريس» من القاهرة إلى الإسكندرية. فقلت في نفسي: فكرة. لماذا لا أغري «العريس» بالسفر معي في الطيارة؟

ولم أضِع وقتًا. وذهبتُ من فوري إلى ذلك الصديق السعيد؛ فأنبأته الخبر واقترحت عليه هذا السفر فاصفرَّ وجهه: طيارة؟!

وأطرق يفكر في «حُجج» يتذرع بها دفعًا لهذا البلاء! وكأنه اهتدى إلى إحداها فقال: أنسيتَ أن معي حقيبة كبيرة بها «الفراك» والقمصان المنشَّاة وملابس أخرى داخلية وخارجية.

– اطمئن! لكل راكبٍ الحق في ١٥ كيلو زيادة على وزنه.

فقال في لهجة العزم القاطع: مستحيل.

– خِفتَ؟!

– ليس الخوف. لكني لا أرى معنًى للسفر بالطيارة.

– المعنى كل المعنى في سفرك الآن بالطيارة. فأنت ذاهب إلى عروسك التي تنتظرك. وليس أحبُّ إلى قلبها من أن تعرف أنك ذاهب إليها طائرًا من فرط الشوق. أنسيتَ قول ذلك الأعرابي الولهان:

أسربَ القطا هل من يعير جناحه لعلِّي إلى من قد هويت أطير

عذر ذلك الأعرابي واضح. أما أنت فما عذرك يا مَن تجد في هذا العصر سربًا من «قطا»، شركة مصر ذات الأجنحة القوية والمحركات الكهربائية.

فلمعَت عينُ صاحبي وأعجبته فكرة الطيران إلى عروسه، ووجد فيها شعرًا وخيالًا. فأذعنَ وقال: غلبتني.

وانصرف يُعِد العُدة. وبقيت أنا أمتع نفسي بلذة الظفر بنجاح الإغراء، ولا أنكر أني قد أحسست الاطمئنان يجري في دمي. فأنا أخشى دائمًا أن ينفرد بي «القدَر» وجهًا لوجه. ويخيَّل إليَّ أن بيننا مبارزة خفية سلاحها السخرية الخطرة. وأعتقد أنه ينبغي لي أن أختفي دائمًا وراء منكبَي رجلٍ كُتب له السعادة، تلك هي «التميمة» التي تقيني شرَّ القدر. إن من الأمثال الشعبية التي أحفظها مثلًا وأومن به: «ضع قدمك في «مركوب» السعيد تسعد». وهذا «العريس» رجل سعيد، طيب القلب والسريرة، ممتلئ الجسم صحة وقوة وإيمانًا بالحياة، ولا أظن ساعة مثله قد حانت. ويخيل إليَّ أن من الناس من يشيح الموت عنهم بوجهه كما يشيح إبليس عن المصحف أو الصليب. من أجل ذلك حرصت كل الحرص أن أكون في رِكاب هذا «السعيد» حتى لا يراني القدر ولا يجرؤ على النظر إليَّ بسوء.

وجاء يوم السفر وذهبت إلى المطار، وجعلَت عيناي الزائغتان تبحثان عن «العريس» في كل مكان، ودقَّ الجرس ووقفت الطيارة المسافرة تأخذ مئونتها من الزيت والبنزين. وتمَّ وزني مع عصاي «ستين» كيلو لا أكثر ولا أقل. وطلب إليَّ موظفو الشركة المبادرة بالركوب، فالتفتُ يمينًا وشمالًا. فقال لي أحدهم: أتنتظر أحدًا؟

فأومأت بالإيجاب، فقال: فات الوقت، ولن يأتي أحد والطيارة قائمة فتفضل!

عندئذ أدركت أن العريس قد هرب. وحدثَتني نفسي أن أتخلف أنا أيضًا وأعود أدراجي ولكن موظف المطار استعجلني قائلًا: من حسن حظكَ أنه ليس اليوم في الطيارة غيرك.

وجذبني من ذراعي في رفق، ومشينا حتى دنونا من السلم المدلى من باب الطيارة وليس بها أحد حقيقة. ولكن قد خُيِّل إليَّ أني أرى فيها شخصًا وهو لا شك «القدَر» أو «الشيطان» في شبه بذلة رسمية سوداء وهو يبتسم لي ابتسامة صفراء. فما تمالكتُ وقلتُ للموظف في ذعر: أنا وحدي في الطيارة.

– نعم من حسن الحظ فأنتَ كأنك قائم بطائرة خاصة.

– لا ... لا ... أشكركم جدًّا. لا ضرورة لقيام طائرة خاصة من أجلي ... هذا شرف عظيم.

وأردتُ أن أبتعد عن السلَّم وأن أهرب من المطار ... ولكن ... فجأة ظهرت سيارة تأتي مسرعة لمحت فيها الصحفي وكان قد أخبرني أنه ربما جاء المطار لتوديعي. ولعله في واقع الأمر ما جاء إلا ليطمئن ويراني بعينه صاعدًا في الجو. فلم أجد مفرًّا. وعدت إلى السلَّم صاغرًا وأنا ألوح له بيدي في غير حماس ردًّا على تحيته الخالصة وتوديعي الحار. وأجلسني الموظف المختص في آخر مقعد قرب الذيل، وأراني مكان القطن أضعه في أذني إذا أزعجني صوت المحركات، وأراني آنية من الورق تنفعني إذا أصابني دوار وقيء وأقفل عليَّ الباب. ورُفع السلَّم وأُدِيرَت المحركات وارتفعت وأنا أقول في نفسي: إذا سقطت الطيارة فإن الجرائد ستنشر الخبر تحت عنوان «ولكن الله سلَّم». وستُزفُّ التهاني إذ لم يكن بالطيارة من حُسن الحظ ركَّاب. فما أجمل هذه النهاية!

ولم تلبث الطائرة أن امتطَت الجو، وثبتَت عليه، ومخرَت فيه، ولم يعد يخيَّل إليَّ أني معلق في الفضاء، بل إن فكرة الفضاء نفسها قد ذهبت من عالم إحساسي. وقلت في نفسي عجبًا. كم من الأخطاء تسبح في أذهاننا كأنها جراثيم. كلمة «الفضاء» واحدة منها. ليس هناك فضاء. وإن الطيارة لتسير على شيء هو أثبتُ مادة من الأرض تحت

عجلات القطار ... ونظرتُ من النافذة فإذا منظرٌ لن أنساه. رأيتُ القُطر المصري تحت كأنه خريطة جغرافية كبيرة مصنوعة من الجبس الملوَّن. وما أنا إلا ذبابة أو مخلوق وهمي كمخلوقات «سويفت» يركب جناح بعوضة هائمة فوق هذه الخريطة. فهذا النيل العظيم بفروعه ورياحاته ليس إلا قنوات صغيرة كقنوات الحارات في اليوم المطير، يلعب فيها الصبيان، ويقيمون عليها السدود من الوحل والطين، وهذه المدن الصغيرة أو الكبيرة ليست إلا خلايا نحل وأعشاش عصافير، وهذه الحقول والغيطان فهي عجبٌ آخر؛ كل أرض مصر الخصبة ليست إلا سجادة «مودرن» برسومات ذات الخطوط المربعة والمثلثة والمستطيلة، وقد صُبغت بالأصفر والأخضر والأسود، ألوان ثلاثة هي وحدها التي تلعب وتجري وتتوزع في أنحاء هذه السجادة كأنها أنغام ثلاث في قطعة موسيقية. ولم أشعر قط أني أتحرك، ولكني كنت أشعر أن أحدًا يحرِّك قليلًا تحت أنظاري هذه السجادة ... هي التي تتغير في أوضاعها، وتكشف لي عن بعض حدودها ودقائقها. أما أنا فشيء ثابت ينظر من علٍ كأنه إله. وأمعنتُ النظر من الجهتين ومن النافذتين، فرأيتُ طرف السجادة الغربي قد تهدل على شبه رمال ... إنها قد وُضعت من غير شك في صحراء، كما يضع الناسك سجادة الصلاة في الخلاء.

ولم يمضِ قليل حتى جذبت يد خفية هذه السجادة؛ فإذا بي لا أرى غير الصحراء تحت أنظاري، كأنها بحر قد عبث النسيم بوجهه الصافي، وأثار فيه تموُّجات خفيفة رقيقة لم تمسَّها بعد أصبع.

تلك بقاعٌ بِكْر من الصحراء لا يمكن أن تفاجئها غير عين الله وعين بعض الطيور النادرة، أنا الآن أحدُها بفضل هذه الأجنحة المصنوعة من القطن والخشب!

وذهب هذا البحر الأصفر. وبدأت عيني ترى أطراف ذلك البحر الأزرق يبرق عن بعدٍ كأنه فصٌّ فيروز في كف الكون. وأطلت النظر واقترب مني البحر حتى انطرح تحت أقدامي عاريًا كتمثال امرأة ... من البلور. ورأيت فيه الثغر صغيرًا كأنه يضحك ... عن بضع سفن شراعية بيضاء وبخارية كألاعيب الأطفال. فعلمتُ أني قد وصلتُ سالمًا.

وهبط بي ذلك الجناح السحري. فإذا أنا في مطار الدخيلة وإذا الوقت الذي مضى بين القاهرة والإسكندرية لحظة كالحُلم لم أفكر أثناءها في موت ولا في حياة.

لقد كنت في عالم لا يعرف الموت والحياة: لقد كنت فوق السحب!

كن عدوًّا للمرأة

صِحتُ في يوم من أيام الربيع، هبَّ فيه على وجهي نسيم لطيف، ووقعَت عيني على أغصان تتمايل، وأزهار مفتحة تتضاحك: أيها الشيطان! يا شيطان الفن! يا سجاني وجلادي! أطلقني من أغلالك قليلًا! إني أريد الحب! إني أريد المرأة!

فابتسم شيطاني ولم يزِد على أن قال ساخرًا: المرأة مخلوق تافه!

– كلَّا.

– بلى. إنها ليست جديرة بك أيها الفنان الخلَّاق. إنها مخلوق تافه صُنعت من ضلعٍ تافه من أضلاع آدم، وخرجت من الجنة وأخرجته بسبب تافه. فهي في الحقيقة ما وُجدَت إلا لتحشو ثغرات الحياة، وتسدَّ فراغ الأيام والليالي بالأشياء التافهة.

– ولكن المرأة هي التي تُدخِلنا النعيم.

– وهي التي تخرجك منه. وقد أخرجت آدم من قبل بالفعل. فاحذر أن تقبل جنة ونارًا من صنع المرأة، واحرص كل الحرص أن تكون سيد نفسك، وأن تصنع لنفسك نعيمًا وجحيمًا لا تعرفهما المرأة. إن جنتك لا ينبغي أن يكون فيها حية ولا تفاح. فهي جنة هادئة صافية … جنة الفكر والتأمل والخلق والإبداع إذا دخلتها امرأة حلَّت فيها الفوضى، وانفرطَت عقود درها المنظوم، وتحطمَت تماثيلها المرمرية. أما جحيمك فهو مملوء بعذاب الشك والقلق الفكري، وعذاب القصور عن إدراك الكمال الفني؛ آلام لا تفهمها المرأة كذلك، ولا يمكن أن تعترف بها. فأنت ترى أن في نفسك «منطقة مقدَّسة» لا أسمح ولا ينبغي أنت أن تسمح لامرأة بالدنوِّ منها.

– ولكني أتوق أن أعيش لحظة مع امرأة!

– تستطيع أن تعيش دائمًا مع شبح امرأة. ولكن أي امرأة؟! إن تلك التي سمحتُ لك بإدخالها جنتكَ ينبغي أن تكون امرأة لا ككل النساء. إنها النور بغير مصباح، وهي

قطرات النشوة بغير خمر. هي عروس لها جسم المرأة وكل شيء جميل في المرأة، متدثِّرة في رداءٍ من خيالك الذهبي، ولكَ ما هو جميل في نفسكَ قد أسبغته أنت عليها حُللًا رائعة. هي ملكة جنتك التي توحي إليك بخير ما تخرِج وما تبدِع. فالمرأة التي لها شأن في حياتك هي كما ترى ينبغي أن تكون من صُنع يدكَ ومن مخلوقات رأسكَ.

– إن الحقيقة أحيانًا أبرع من الخيال، وإن الحياة لقديرة أحيانًا أن تقذف إلى سطحها بلؤلؤةٍ في شكل امرأة تسطع من بين ملايين أصدافها. فلماذا أيها الشيطان لا تسمح لي مرةً بما سمحت به للآخرين؟

– لا أستطيع أن أسمح لك، ولستَ أنت وحدك، فلقد وجدتُ هذه الأسطر الدامغة في ورقة منفصلة بين مخلفات «بيتهوفن»: «الحب، ليس غير الحب، هو وحده الذي يستطيع أن يجعل حياتي سعيدة. آه يا إلهي! دعني أجدها أخيرًا، تلك التي في مقدورها أن تدعم فضائلي، تلك التي قد سُمح لي أن تكون زوجتي...» ومات بيتهوفن ولم يُسمح له.

– لماذا؟

– لأنك أيها الفنان عبقرية خالقة، وُجدتَ لتخلق وتعطي لا لتسأل وتأخذ.

– مثل الطبيعة.

– نعم، أنت والطبيعة سيَّان. كلاكما يعيش في الحرمان، وكلاكما سرٌّ وجوده أن يعطي ولا يأخذ.

– آه، ولكن الطبيعة قوية جبارة، أما أنا فآدمي مسكين. إنها لا تتألم، أما أنا فأتألم إذ أرى الحياة تزول من تحت قدمي ولم يُسمح لي بحظٍّ قليل من الهناء الذي يُسخى به على بقية الآدميين!

– الآدميين؟ ومن قال إنك منهم أيها الفنان؟! عندما كتِب عليك أن تضع على منكبيكَ رداء «العبقرية والخلق» خُلعَت عنك في الحال بعض خصائص الآدميين!

من الأبدية

لو كنت في الأبدية ماذا أشاهد؟

لطالما خطر لي هذا السؤال كلما شاهدت جنازة مارَّة في الطريق. تُرى لو سمع الميت ما يقال خلف النعش من الكلام، ماذا يصنع؟ لو عِلم أن هؤلاء المشيعين لا يتكلمون عنه طول الوقت، وأن فيهم من يستنزل عليه اللعنة إذا طال المشي، ولم يبدُ بعد أثر المسجد الذي سيصلى عليه فيه، وأن منهم من يسلِّي نفسه وجاره في أثناء السير بحكايات ونوادر قد تدعو إلى الضحك والابتسام، وأن منهم من يتكلم في عمله وتجارته وبيته وغيطه. لو عِلم الميت أن كل ما خصَّه هو من كل هذا الكلام الذي يدور خلف خشبته لا يعدو دقائق معدودات، وأن كل ما أنفق من وقت المشيعين في الخشوع لجلال الموت لا يتجاوز لحظات، وأن الصمت الرهيب الذي كان يجب أن يحيط بنعشه لم يدُم أكثر من دقيقة، ثم بدأ الهمس يعلو، والهمهمة ترتفع، والكلام والثرثرة يَدويان بين الصفوف في طنين كطنين الذباب، ذلك أن الناس غير قديرين على نسيان أنفسهم والسُّمو عن هذه الأرض والارتفاع عن شئون حياتهم العادية الصغيرة أكثر من خمس دقائق.

ومع ذلك، لماذا نريد من الناس الوقوف أمام الموت موقفًا أجلَّ من هذا؛ إن الموت لا يجلُّ ولا يعظم حقًّا إلا في نظر من يموت في تلك اللحظة التي يشعر فيها المحتضر أنه مفارق هذه الدار التي عرفها وعرف أهلها إلى مكان مجهول، فراقًا لا رجعة بعده. في تلك اللحظة يرى المحتضر الدنيا تبعد عنه كما تبعد المحطة عن أنظار المسافر في قطار. ويرى دموع المودِعين من الأهل والخلان تتساقط على باقات الأزهار يقدمونها إليه فيخيَّل إليه أن ذهابه سيغير وجه الأرض. ولا يعلم أن هؤلاء المودِعين سينصرفون من باب المحطة إلى شئونهم ضاحكين كأن لم يحدث شيء. تُرى لو رأى الميت كل ذلك في صندوقه وأعطِي

القدرة على الخروج منه والنهوض، أما كان يصيح في الناس: أتسمُّون أنفسكم مشيعين؟ انصرفوا أيها اللكعاء!

إني شخصيًّا لا أعتقد أن الميت يفعل ذلك أو يقوله لو قدِر عليه. إن الميت إذ يجتاز عتبة العالم الآخر ويدخل منطقة «الصفاء» ينظر إلى الناس وأحوالهم من علٍ كما ينظر الإنسان إلى سرب النمل يحمل جناح صرصار إلى ثقب في أسفل الجدار. إنه يستكثر على الناس مجرد التحرك في تابوته لينظر إلى ما يفعلون، إنه يستكثر على المادحين والقادحين حتى مجرد ابتسامة سخرية تعلو شفتيه الجافتين الباهتتين.

فهذا السؤال الذي ألقيته على نفسي لا معنى له عند الميت. إنما هو سؤال يُمليه علينا غرورنا نحن الأحياء.

على أني على كل حال لو تمنيت شيئًا بعد الموت. لرغبتُ في أن أقول أنا رأيي في الناس وقد تركتهم، قبل أن يقولوا هم عني شيئًا وهذا مستطاع. وقد فعل ذلك فيما أعلم أحد الأمريكان أو الإنجليز غريبي الأطوار. إذ سجَّل خطبة له في أسطوانة فونوغراف وأوصى المشيعين أن يطلقوها على قبره تنطق بصوته وأنفاسه وضحكاته وكلماته. فماذا يمنعني من أن أصنع مثله، وأن أقوم في الناس خطيبًا بعد موتي أقول فيهم:

«سيداتي وسادتي:

«أولًا ... فلتجفِّف السيدات أعينهن؛ حتى لا يضيع كلامي بين الشهقات، وحتى لا تُضيع الدموع طلاء وجوههن وصبغة شفاههن. وهذا هو المهم. فإني ما زلت حريصًا على أن تكون المرأة جميلة. فالجمال هو العذر الوحيد الذي به نغفر للمرأة كل تفاهتها وحماقتها. عفوًا. لقد نسيت أني ميت، وأنه ما كان يليق بي أن أوجِّه إليكن أيتها السيدات هذه الألفاظ في مثل هذه اللحظة الرهيبة، أنتُن ولا ريب تصغين إليَّ الساعة والغيظ بادٍ عليكن، ولولا جلال الموت، لألقيتن على قبري أحذيتكن ذات الكعب العالي، إن كل ما ستفعلنه الآن عقابًا لي وامتهانًا لشأني، هو أن تخفين في الحال مناديل العبرات العاطرة، وتخرجن أصابع الأحمر الناضرة، وتنظرن في مرآة الحقيبة الصغيرة وتهززن أكتافكن قائلة إحداكن للأخرى: «والنبي الدموع فيه خسارة!» وهذا ما أريد أن أصل إليه، وهذه نصيحتي الثمينة. لكن معشر الأحياء من النساء: حذار أن تتلفن هدبًا واحدًا من أهدابكن الجميلة من أجل شيء على هذه الأرض، فإن الأرض كلها لا تساوي هدبًا واحدًا من أهدابكن!».

«أما أنتم أيها الرجال والأصدقاء والمعجبون، المرتدون السواد على فقيد الأدب، المحزونون لفداحة المصاب الجلل، الباكون لما رُزئَت به العربية والناطقون بالضاد ...

إلى آخر هذا الهراء الذي سيملأ به خطباؤكم وشعراؤكم تلك المراثي البليغة والقصائد العصماء ... وإني لألمح الساعة جيوب بعضكم منتفخة بشعر ونثر قد كتب خاصة للتأبين. ولعل أكثره قد وُضع قبل الاحتضار؛ حتى يكون معدًّا للإلقاء في الوقت المناسب، ولعل إحدى تلك القصائد قد نشرت اليوم في صحف الصباح بينما نشر إلى جانبها خبر الوفاة. كأنما القصيدة العصماء قد خرجت من صدر صاحبها ساعة خروج روحي من صدري! لِمَ كل هذا الإسراع؟ ألا يتركني الأدب وشأني وقد صرتُ ترابًا؟ أيظل يلاحقني شيطان الفن ويصيح في إثري وأنا أفرُّ منه إلى عالم أرجو ألا أرى وجهه فيه. أما يكفيه أنه أضاع عليَّ حياة نابضة. أنا الذي صنعه خالقه من لحم ودم، ووضعه في دنيا جميلة زاهرة، وقال له: «انطلق وعش حياتك في هذه الحياة». فلم أفعل ذلك. ولكني أحلت لحمي ودمي إلى ورق ومداد. آه ... إنكم لو أنصفتم معشر المشيعين لوضعتم جثتي مع كتبي وأشعلتم النار في كل هذا. عجبًا. إني أبصِر أحدكم وهو شاب فيما أرى لا يريد أن يصدق ما أقول. وإن فمه ليرتجف كأنما هو يريد أن يصرخ متحمسًا: «في ذمة الخلود، في ذمة الخلود»!»

«أيها الصديق الصغير ليس من اللطف أن أضحك الساعة منك ومن «خلودك»، وأن أبدد تلك الأحلام التي تخيم على عشرين ربيعًا من حياتك النضرة كما يخيم خمائل الأزهار على خلوة المحبين، ولكني أقول لك إن كلمتك هذه إن صلحَت لسنِّكَ وكان لها عندك أعمق المعاني، فإنها عندي الآن لا معنى لها، ولست أدري ماذا تقصد بها؟! تقصد أني قد أكون تركت لكم بعض آثار ربما بقيت. فليكن. ماذا يُهمني أنا من ذلك؟»

«وبعدُ ... لا أحب أن أستبقيكم وقوفًا أمام قبري أكثر من ذلك، فإن من بينكم من قد ارتبط بمواعيد سابقة وهو يختلس النظر في ساعته من آنٍ لآن. وليس عندي بعد ما أقول لكم، غير أني أرى في أوائل صفوفكم أصدقاء لي لا يمكنُ أن أستخف بعواطفي نحوهم. ولعل صداقتهم هي خير ما خرجت به من تلك الدار.»

«والآن، اسمحوا لي أن أسكت سكوتي الأبدي وأنا أرجو منكم أن تنصرفوا إلى شئونكم كأنه لم يحدث شيء؛ فلست في حاجة إلى كلامكم، وإذا أردتم أن تعقِّبوا على قولي هذا بشيء في دنياكم تلك، فضعوا مكان أسطوانتي هذه أسطوانةً موسيقية لأحد الموسيقيين الذين كنت أحبهم، تلك هي اللغة الوحيدة التي أستطيع أن أفهمها عنكم في كل وقت ... والوداع.»

هنداوي